الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة عمار ثليجي – الأغواط
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

مذكـــــــــرة ماستـــــــر

الطالب (ة): بن عطية آمنة

ميدان: اللغة والأدب العربي
شعبة: الدراسات الأدبية
تخصص: تحليل الخطاب الأدبي (قديما وحديثا)

الرثاء في ديوان الشيخ محمد الخضر حسين

أعضاء اللجنة المناقشة

الاسم واللقب	الدرجة العلمية	الصفة
جلول بن شاعة	أستاذ مساعد (أ)	رئيسا
أبو بكر مرزوق	أستاذ محاضر (أ)	مشرفا ومقررا
بولرباح عثماني	أستاذ محاضر (أ)	مناقشا

السنة الجامعية: 1439هـ-1440هـ/ 2018م – 2019م

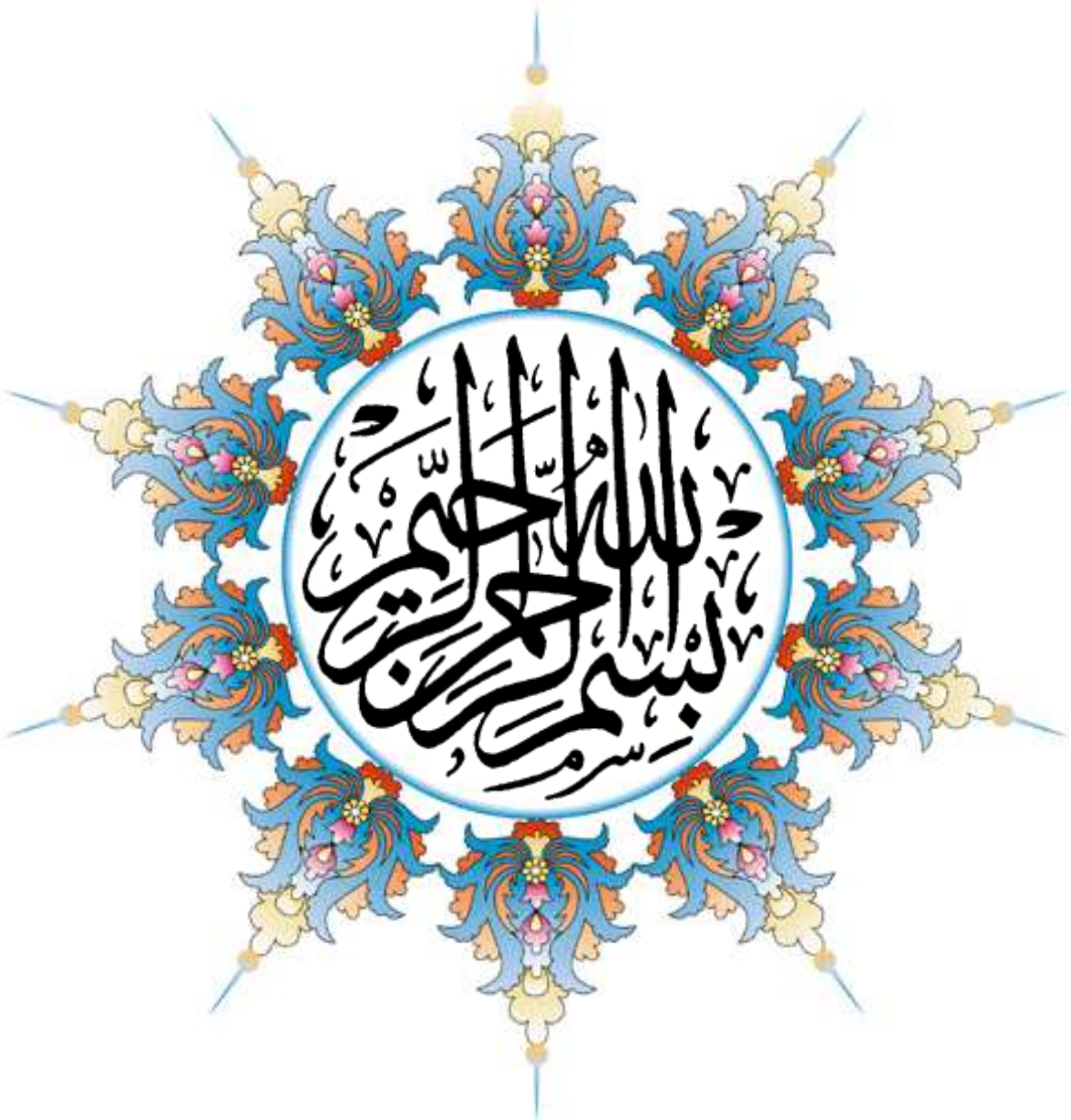
بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى روح الشيخ محمد الخضر حسين الجزائري

بن عطية آمنة

شكر وعرفان

الحمد لله.. والشكر لله..

إلى كلّ أسرتي الصغيرة

إلى كل أسرتي الكبيرة

إلى جميع من عرفت في رحلتي الدراسية: أساتذة، وموظفين وإداريين، وطلبة، وأصدقاء

إلى كل من أمدنا بيد المساعدة حتى يرى هذا البحث النور

شكر خاص وخالص لأستاذي المشرف (أبو بكر مرزوق) على كلّ مساعدة ومشاركة.

بن عطية آمنة

مقدمة

إنّ الكلام عن شخصية محمد الخضر حسين الجزائري، شيخ الأزهر الشريف، لا يمنعنا مـــن الكلام عن الوجه الآخر المشرّف أيضا، لهذه الشخصية، وهو شخصية الخضر حســـين: الأديـــب الشاعر، والكاتب الناقد.

والقارئ لشعر الشيخ الخضر، سيدرك – لا محالة – قوة الشاعرية في ديوانه، خاصة شـــعره المرتبط بالعلاقات الاجتماعية الحميمية، مثل شعر الأقارب، وشعر الإخوانيات، وشعر الصداقات، وما يرتبط بها من مشاعر ذاتية وإنسانية.

ولعل محور مقاربتنا لشعر الشيخ الخضر سيقف عند "الرثاء"، بوصفه غرضا أصـــيلا تموقـــع تموقعا بارزا في الديوان.

أسباب اختيار الموضوع:

إنّ من الأسباب المباشرة في اختيار هذا الموضوع، هو الانتصار لمشروع الإمام الأكبر، الشيخ محمد الخضر حسين الجزائري الذي صرف إليه الأستاذ: أبو بكر مرزوق كل جهده حين اســـنده إلى الطلبة (طلبة الماستر)، وهو سبب مقنع في الإسهام في هذا المشروع الذي نحن أولى به، بوصفنا طلبة جامعيين، يضاف إليها فضول التعرف إلى هذه الشخصية التي تكاد تكون مجهولة عند كـــثير من الطلبة، والاقتراب من تراثه اللغوي، والأدبي، والفكري، والديني.

إشكالية البحث:

ربما كمنت إشكالية الموضوع في تلك النظرة إلى الشيخ الخضر "الأديب، والشاعر، والناقد"، بمعزل عن الشيخ الخضر "المعلم والمربي المصلح، رجل الدين، وشيخ الجامع الأزهر الشريف"، ممّـــا يستدعي استقصاء حياة الشيخ الذاتية، من خلال غرض الرثاء، الذي يخوض في العلاقات الخاصة الحميمة، التي يضمّنها الرثاء – بأنواعه – في المعاني، ويحركها في المشاعر والعواطف، ويجسّدها في الأسلوب. وهي – في نظرنا – إشكالية حقيقية، تحتاج إلى متابعة، حينما ندرك وظيفة الشعر عند الشيخ الخضر حسين.

لم يكن الشعر عند الشيخ الخضر – يوما – تلك الصناعة الجميلة التي يتباهى بـــه الأدبـــاء والشعراء، وقد امتلك أدواتها النفسية، والفكرية، والعلمية، والفنية. وكثيرا ما كان يجعل الشعر من اهتماماته الثانوية، مقدّما عليه العلم (علم الدين)، لجدواه في نظره. غير أنّ ما نفثه من شعر، قـــد كشف جانب المسكوت عند الشيخ الخضر، خاصة، ما ارتبط بحياته الخاصة، وعلاقاته الحميميـــة بين أهله، وأصدقائه، ومن صادفهم في حياته، فأبقوا أثرا واضحا المودة والحب، لذلك كان غرض الرثاء في ديوانه أفضل ما يحقق هذه الغاية من إشكاليتنا.

أهداف البحث:

من أهداف هذا البحث ما هو عام، يرتبط بالتكليف، الذي كلفني به الأستاذ المشرف (أبو بكر مرزوق)، منذ أن اقترحني عضوا ضمن فرقة بحث مشروعه الكبير (مشروع الشـــيخ الخضـــر حسين الجزائري)، من أجل

المساهمة في كشف الحجاب عن شخصية الخضر هذه القامة الجزائرية المغاربية العربية الفذّة. وعلى أثر ذلك برز الهدف الخاص، المرتبط بعلاقتي الذاتية (النفسية والعلمية) بشخصـــية الإمـــام الخضر: الأديب الشاعر، والكاتب الناقد، وفضولي الكبير أن أتعرّف إليه من خلال شعره، بل من خلال اصدق أغراض شعره، وهو غرض الرثاء.

ولأجل مقاربة هذا الفن عنده (فن الرثاء)، وإدراك خصوصيته في ديوان الشـــيخ الخضـــر، واستخلاص مظاهر الفنية بدأت ملامح خطة قرائية تتشكّل مع قراءتي لشعره الرثائي، أفضـــت إلى خطّة أولية قدمناها للأستاذ المشرف قصد تقييمها وتقويمها

خطة البحث:

- **المدخل:**

فكرة الموت في الأدب، ومن خلالها، يتمّ التعرّض إلى حقيقة الرثاء، وأنواعه، وخصائصه.

- **الفصل الأول:** يتناول الرثاء عند الشيخ الخضر حسين، ودواعي الرثاء عنده من خلال استقراء الديوان
- **الفصل الثاني:** يتناول بناء قصيدة الرثاء من حيث المضامين والأساليب.
- **الخاتمة:** تكون استنتاجية ملخصة لما توصلت إليه هذه المقاربة التحليلية

منهج البحث:

ربما كانت المقاربة التحليلية أنسب إلى دراستنا، القائمة على جمع المادة الرثائية المبثوثـــة في ديوان الخضر حسين، ومن ثم تحليلها واستنباط أحكامها الفنية الجمالية: الفكريـــة والموضـــوعية والوجدانية والأسلوبية..

تنبيه:

ننبّه إلى أنّ ضيق الوقت، وصعوبة التوفيق بين الدراسة والبحث، إلى جانب ظروف الأستاذ الخاصة، قد حال دون الإنجاز الجيد للبحث. كما ننبه إلى شح المراجع والدراسات الأدبية حـــول تراث الشيخ الخضر ممّا جعلنا نعتمد على ما جاء في الديوان، وهو – في حقيقة الأمر – ما يجـــب أن يكون.

كما ننوّه بالدور الكبير الذي قدمه الأستاذ المشرف الدكتور (أبو بكـــر مـــرزوق)، مـــن تدخّلات جوهرية، أثذرت بشكل موجب على البحث. فله منّا خالص الشكر والامتنان.

مدخل
فكرة الموت في الأدب

تمهيد:

تعد موضوعة الموت احدى موضوعات الأدب العربي عامة، والشعر خاصة، إذ إن مفهوم الموت أخذ بالاتساع وفقا للمفاهيم الجديدة التي تبناها المعاصرون، وأخذت التراكيب الشعرية الجديدة تعج بهذه المفاهيم، فتحمل أشكالاً مختلفة للدلالة عليه، فالحديث عن الموت، يخرج الإنسان من دائرة الواقع إلى دائرة الخيال، إذ تنفتح أمامه مدارك مختلفة توصله في النهاية إلى وحدة العلاقة بين الحياة والموت[1]، حيث سلك الأدب العربي مسالك شتى في معالجة الموت والنظر إليه، والتأمل فيه.

فقد صور الأدباء في التراث العربي فاجعة الموت تصويراً متباينا، فلا تجد فيهم إلاّ ناقلا للحكمة المرادة من مصيبة الموت، تسير عبرةً، وموعظة في الناس، أو ساردا لثنائية الموت والحياة، بأسلوب لم يغب عنها إبداع القص والحكي[2]، أو واقفا مشدوها تُجاه الموت لحظة فقد الأحبة، أو ذكرا هادم وهازم اللذات، أو قانصا أوقات السعادة، مختلسا أطايب الحياة، أو خاشعا ضعيفا مع مرض يدني إلى موت، خاشيا أن يترك وراءه أولادا يضيعون بموته، ويذوقون الفقر بارتحاله، ليبقى الموت مصيبة الحضارات، وحقيقة لا مفر منها، تواجه الإنسان شاباً وشيخاً، كبيراً وصغيراً[3].

ولم تغب مسألة الموت عن الشعراء عبر مختلف العصور، إذ سيطرت فكرة الموت على تفكير الشاعر ومعتقداته؛ فإذ هو من أشدّ الناس انفعالاً وتأثراً به، كما لم يختلف عن غيره من الناس في استقبال فاجعته؛ إذ يتساوى الكل إمام مصيبته[4]. وطرق العديد من الشعراء باب الرثاء، وتناول مختلف ظروفه، من ندب وتأبين وعزاء، للأقارب والأباعد، فرثوا أصحاب الجاه والنفوذ والسلطان مجاملة، ورثى بعض أبناءهم وزوجاتهم، حرقة وحزنا، وكان منهم من بكى الأوطان، والحيوان، ومنهم من بكى نفسه قبل وفاته.

---

[1]- ملاك سعيد مُحَمَّد شعليو: رؤية الموت في شعر مُحَمَّد القيسي، رسالة ماجستير، جامعة الشرق الأوسط، كانون الثاني، 2016. 2016.

[2]- مُحَمَّد شعبان أيوب: كيف نظر تراثنا لفكرة الموت، وهواجسها ؟ آخر تحديث: 2018/5/25، سا16:43د مكة المكرمة. المكرمة.

[3]- مرجع نفسه.

[4]- سراج الدين مُحَمَّد: موسوعة المبدعون (الرثاء في الشعر العربي)، دار الراتب الجامعية، بيروت، ص: 05.

ويبقى فن الرثاء صورة تعبيرية راقية، يعبر به الشاعر عن شعور عميق بالحزن والألم؛ غير أن شعراء الرثاء لا يهتمون بقالب رثائهم، ولا يسارعون إلى تنويع صيغه تنويعا واسعا، أو يهتمون بصورهم واستعاراتهم وتشبيهاتهم، أو يعتنون بموسيقاهم وأوزانهم الملائمة لمشاعر الحزن والأسى، وإنّما يستسلمون لطبعهم العفوي، وارتجالهم الشعري الصادق، الذي ينتقى انتقاء صادقا جميلا الشكل التعبيري المؤثر.

الرثاء في الاصطلاح:

الرثاء من الاغراض الشعرية البارزة في التراث العربي وهو من أعرق أغراض الشعر العربي، وقد حظي فن الرثاء بعناية خاصة على مدى عصور الشعر العربي[1]، وهو بكاء متأصل في القدم، منذ أن وجد الإنسان، ووجد أمامه هذا المصير المحزن: مصير الموت والفناء الذي لابدّ أن يصير إليه، فيصبح أثراً بعد عين، وكأن لم يكن شيئا مذكورا[2]،

يعتبر الرثاء من الفنون الشعرية، التي تتأسس على صدق العاطفة، وعمق الإحساس بالآخر، وعلى تصور حقيقي يربط بين ثنائه الموت والحياة، بحتمية الانتقال فاجعة الأسى والحز، والانهيار النفسي، إلى حتمية الصبر والتأسي ومواصلة الحياة[3]، والتعلّم من مصيبة الموت ولعل من الأثر الذي يبقيه الميت في نفوس من تعلّقوا به، قيمة الوفاء للميت؛ إذ يدل الرثاء على وفاء الشاعر، حيا وميتا، حين يذكر محاسنه، فيتعلم منه مكارم الأخلاق، ويعلّمها حين يروجها في قصائده، فتنتشر بين الناس، ويكون بها أبعد أثرا بسبب صدق العاطفة"[4].

---

[1]- وفاء كامل فايد: قصيدة الرثاء، دار الكتب 2000/3078، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 2000، ص: 8.

[2]- شوقي ضيف: الرثاء، دار المعارف، القاهرة، ط.4، ص: 5.

[3]- آمنة عشي: الرثاء في ديوان ابن زيدون (دراسة أسلوبية)، مذكرة ماستر، جامعة مُحَمَّد خيضر، بسكرة، 2015/2014، ص: ص: 7،8.

[4]- المرجع نفسه، ص: 8.

ولما كان غرض الرثاء هو البكاء على الميت، وتعداد مناقبه، وإظهار التفجع عليه، واستعظام المصيبة فيه، فهو يوافق غرض المدح في المعاني، حين يختلط به ما فلا نكاد نفرق بين الغرضين إلاّ ما يفهم من الشاعر، ويفهم من سياق شعره، أنّه يتكلم عن حي أو ميت[1].

والرثاء فن من فنون الشعر الغنائي؛ يعبر فيه الشاعر عن حزنه وتفجعه لفقدان حبيب، وهو يتلون بألوان مختلفة، تبعاً للطبيعة والمزاج والمواقف، فإذا أغلب على الشخص البكاء، وبثّ اللوعة والحزن، كان ندباً، وإذا غلب عليه تسجيل الخصال الحميدة التي تمتع بها الفقيد في حياته، كان تأبيناً، وإذا غلب عليه التأمل في حقيقة الموت والحياة، كان عزاء، وقد يجتمع الندب والتأبين والعزاء والعزاء في القصيدة الواحدة[2].

فأما (**الندب**): وهو النواح والبكاء على الميت بالعبارات الشجية والألفاظ الحزينة التي تصدع القلوب القاسية، وتذيب العيون الجامدة، إذ يولول النائحون والباكون، ويصيحون، ويعولون، مسرفين في النحيب والنشيج وسكب الدموع، وقد عرف العرب منذ العصر الجاهلي هذا النوع، حيث نجد النساء النادبات في الجاهلية، وقد ألّفت لهن الأشعار التي يندبن بها الموتى. ويقال بأن النساء النادبات كن يحلقن شعورهن، ويلطمن خدودهن: بأيديهن وبالنعال والجلود، وكن يصنعن ذلك عند القبر، وفي مجالس القبيلة، وفي المواسم العظام[3]. ولهذا النوع خمسة ألوان وهي:

-ندب الأهل والأقارب.

-ندب الشعراء أنفسهم.

-ندب الرسول ﷺ، وآل البيت الكريم.

-ندب الدول.

-ندب البلدان.

---

[1]- غازي طليمات/ الأستاذ عرفات الأشقر: تاريخ الأدب العربي الجاهلي (قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه)، دار الأدبية، حمص حمص – سوريا، ص: 194.

[2]- أميل ناصف: أروع ما قيل في الرثاء، دار الجيل، بيروت، ط.2، ص: 5.

[3]- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)، دار المعارف، القاهرة، ص: 210.

وأما (**التأبين**): فأصله الثناء على الشخص حيا أو ميتاً، ثم اقتصر استخدامه على الموتى فقط، إذ كان من عادة العرب في الجاهلية، أن يقفوا على قبر الميت، فيذكروا مناقبه، ويعددوا فضائله، ويشهروا محامده، وذلك للاحتفاظ بذكرى الميت على مر السنين.

ونجد التأبين على ألسنة الرجال والنساء، لأنهم لا يكتفون بتصوير شعورهم الحزين، بل يضيفون إليه إشادة بالميت ومناقبه، بل هم يبكون فيه نموذج المروءة، ليعززوا به قيم الكرم والشجاعة والوفاء، وحماية الجار، والفصاحة والسيادة والشرف، فربما كان غرضهم من تأبينهم: أن يصوروا – تصويراً تاما – مدى خسارة الناس للفقيد.

ومما لا شكّ فيه أن الصورة القديمة لهذا التأبين هي تلك النقوش التي عثروا عليها في انحاء مختلفة من الجزيرة، وكانوا يكتبون فيها أسماءهم وألقابهم وبعض أعمالهم تمجيداً لذكراهم وتخليداً لها، وتحولت هذه الصورة الساذجة إلى هذا التأبين الواسع الذي نجده عند الجاهلين[1].

ثم يأتي (**العزاء**): وهو الدعوة إلى الصبر على الشدائد؛ إذ الموت كأس دائرة على الجميع ولا مرد لحكم القضاء، بمعنى أنّ أصل العزاء الصبر ثم اقتصر استعماله في الصبر على كارثة الموت[2]، وفي الوقت نفسه استسلام للقدر ورضوخ للمشيئة الإلهية ونظام الحياة، فالموت كأس يذوقها الجميع، لم يسلم منها أحد لا ملك ولا سوقة، وكم من دولة دالت وجماعة بادت، من مثل قوم نوح وعاد وثمود ومثل كسرى، وسابور ملكي الفرس، وملوك الروم المختلفين، وملوك الجيزة.

والشاعر الجاهلي القديم يفكر في هذا كله فكان يحزن ويبكي ويعبر عن ذلك تعبيراً قويا في شعره ، ثم يعود إلى نفسه فيرى أن كل ما يصنعه لا يغنيه شيئاً؛ لأنّ المحنة – في حقيقتها – محنة كبيرة محنة، الناس جميعاً، يمتحنون بها صباح مساء ، ولا يستطيعون ردّ لها أو دفعا، ولعل ذلك ما جعل الخنساء تقول[3]:

---

[1]– شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)، دار المعارف، القاهرة، ص: 210.

[2]– المرجع نفسه، ص: 86.

[3]– شوقي ضيف: الرثاء ، دار المعارف، القاهرة، ط.4، ص: 87.

ولولا كثرة الباكين حو لـ ي ** على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن ** أعزيّ النفس عنه بالتأسّي

خصائص الرثاء الفنية:

إذ كان المديح يقوم على فن الثناء وتعداد مناقب الإنسان الحي وإظهار محامده، وإشاعة فعاله التي خلقهاالله فيه بالفطرة، والتي اكتسبها اكتساباً، والتي يتوهمها الشاعر فيه، فإن الرثاء هو تعداد لأجمل الصفات عند الميت، لذا عدّ الرثاء شكلاً من أشكال المدح.

إنّ خصائص الرثاء الفنية تماثل خصائص المدح، ومن أهمها:

- امتزاجه بالأغراض الأخرى كالحماسة والفخر ووصف الحرب في أكثر الأحيان، وأفراده بقصائد ومقطعات في أحيان قليلة مراثي النساء اخوتهن وآبائهن وأبنائهن.

-غياب المقدمة الطللية والغزلية، ذلك: أنّ للموت هيبة، وهذه الهيبة جعلت من هذا الفن يبتعد عن الغزل، وعن التفكير في كل ما هو جميل، غير أنّ قصائد قليلة شذت،وخالفت القاعدة المطّردة، وتضمنت مقدمات طللية أو غزلية.

-الابتعاد عن الغرابة اللفظية، وتعليل هذه الظاهرة يسير وصعب في الوقت نفسه، ذلك أن الشاعر المحزون يقربه الحزن من الفطرة ويقصيه عن الصنعة فيستخدم من الألفاظ أشيعها وأعلقها بالذاكرة، وأسيرها على الألسن.

-التعلق بالحياة: حيث كانت حياة الجاهلية يسودها الخوف والفزع من الموت، ويتضح ذلك في الحرص على الحياة، ولا يجد إيمانا قويا بحياة أخرى، كما طغى على فن الرثاء النزعة المادية على النزعة الروحية، وذلك لعدم تصورهم للحياة الثانية التي تتميز بالحساب والبعث.

-الواقعية والزهد في المبالغة: ترتبط هذه الخاصية ارتباطاً وثيقا بالصدق والصراحة اللذين جبلا عليها الخُلق العربي، وبطبيعة الخيال الحسي عند العرب.

-ندرة رثاء النساء: و تعود هذه الظاهرة إلى حرص الشاعر على الظهور بمظهر التجلّد، وإلى طبيعة الحياة التي تربط الضعف بالمرأة، والقوة بالرجل، فقد قل رثاء الرجال للنساء.

-إشراك الطبيعة في الحزن: والسبب المعقول لهذه الظاهرة هو أنّ الشاعر الجاهليِ كان شديد الاتصال بالطبيعة؛ يحسها في كل جانب من جوانب حياته، وأن لهذا الاتصال امتداداً يجاوز الحياة

إلى ما بعدها، ويتمثل في دورة الحياة الملموسة. فالناس يأكلون من الأرض ثم تأكلهم الأرض، فينتزع باطن الأرض البشر من ظاهرها.

الفصل الأول

شعر الرثاء عند الشيخ الخضر حسين

المبحث الأول

التجربة الشعرية عند الشيخ الخضر حسين

كتب الشيخ الخضر مقدمة لديوانه (خواطر الحياة) ، وهي عبارة عن سرد لتجربة الكتابة الشعرية عند الشيخ الخضر حسين*.

تكلّم الشيخ في بداية المقدمة عن مسقط رأسه (نفطة)، والمناخ العلمي والأدبي فيها:

"نشأت في بلدة من بلاد الجريد بالقطر التونسي يقال لها (نفطة)، وكان للأدب المنظوم والمنثور في هذه البلدة نفحات تهبُّ في مجالس علمائها، وكان حولي من أقاربي، وغيرهم من يقول الشعر، فتذوقت طعم الأدب من أول نشأتي.." [1].

وأشار إلى المحاولات الأولى لكتابته الشعر، في سن مبكرة، وما وجده من حوافز لقرض الشعرعندما انتقل مع أسرته إلى العاصمة (تونس):

".. حاولت في سن الثانية عشرة نظم الشعر، وفي هذا العهد انتقلت أسرتي إلى مدينة تونس، والتحقت بطلاب العلم بجامع الزيتونة، وكان من أساتذة الجامع ومن هم في الطبقة العالية من طلاب العلم من أولعوا بالأدب، والتنافس في صناعة القريض إلى شأو غير قريب، فاقتفيت أثرهم، وكنت أنظم قصائد تهنئة لبعض أساتذتي عند اتمام بعض الكتب، ولكني أقبلت على طلب العلم، وتغلب ارتياحي له على ارتياحي للأدب حتى زهدت في صناعة النظم، إلا في أوقات تقتضي أن أهنئ صديقا حميماً، أو في مجالس تجري فيها محاورات أدبية، فتحرك داعية النظم لأن أقول البيت أو البيتين أو الثلاثة" [2].

كما أشار إلى موقفه من شعره في تلك المرحلة، وإهماله له حينما نوى الهجرة إلى بلاد الشام:

".. ولقلة إقبالي على نظم الشعر، أو لأنني كنت أرى ما أنظمه منه ليس أهلاً لأن يحتفظ به، لم يصحبني منه عندما رحلت من تونس إلى الشام غير شذرات وجدتها مبعثرة في كتب استصحبتها في رحلتي" [3].

---

* ينظر: موسوعة الأعمال الكاملة: مقدمة ديوان خواطر الحياة، الإمام مُحَمَّد الخضر حسين، جمع وضبط: علي رضا الحسيني، دار النوادر، ط. 1، 2010، 7: 6-8.

[1] – الخضر حسين: المقدمة، ص: 6.

[2] – الخضر حسين: المقدمة، ص: 7.

[3] – الخضر حسين: المقدمة، ص: 7.

مع نزوله بلاد الشام، زهد في قول الشعر، وتوجه إلى البحث العلمي والدعوي:

".. نزلت دمشق، وللشعر فيها سوق غير كاسدة، ولكنني آثرت أن أصرف القريحة في البحث العلمي، أو في العمل للقضية الإسلامية، بقدر ما أستطيع، وربما نزعت نفسي إلى أن أقول شعرا، فأرخي لها العنان، وأقول: هو فن من فنون الأدب الجميل، وللنفس فيه سلوة، ولاسيما شعراً أطرقُ به ناحية خلقية، أو أشارك به العاملين لإصلاح الحالة المدنية، أو أُودعه صورة معنى لا أذكر أني لمحته فيما طالعته من المنشآت الشعرية والنثرية"[1].

وينتقل الشيخ الخضر من دمشق إلى مصر، بلد الشعر، ولم يجرؤ على قوله لوجود فحول الشعراء فيها، ثم إنّ البحث عن وظيفة علمية تناسب ثقافته وتناسب استعداده العلمي، في مصر، كان شاغله الشاغل، فجعل الشعر في المقام الثاني. يقول الشيخ الخضر:

".. ثم هبطت مصر، وكانت صناعة القريض قد ارتقت فيها إلى ما يطمح إليه الشاعر العبقري، فازددت زهدا في النظم، وقلت يومئذ: أَجوده ليس في متناول قريحتي، وغير الأجود تتسامى عنه همتي، وربما خطرت لي صور من المعاني في أوقات أبتغي فيها راحة، فألبسها ثوبا من الكلام الموزون"[2].

في مصر، ومع إلحاح بعض إخوانه من الأزهر الشريف، اقترحوا عليه أن يجمع ما كتب من شعر، ويخرجه إلى الناس:

".. ولم يلم بخاطري في يوم أن أجمع ما نظمته، وأخرجه للناس، حتى اقترح علي طافة من إخواني الفضلاء أن أجمعه من أوراقه المتفرقة، وأصدره إلى عالم الأدب في صفحات متتالية، فما وسعني إلا أن تقبلت اقتراحهم، وقلت: هو كلام موزون، إن لم يجد فيه الأديب ما يروقه من لفظ أنيق، أو معنى رشيق، فقد يرى فيه المؤرخ أشياء يهمه أن يتعرفها من مصادر متعددة"[3].

---

[1] – الخضر حسين: المقدمة، ص: 7.

[2] – المرجع نفسه، ص: 7

[3] – المرجع نفسه، ص: 8.

وبعد تردد، عزم على جمع قصاصاته الشعرية التي حملها معه من تونس، وما كان ينشره في الصحف، وتولّى أمره بنفسه، فرتب قصائده، ودلّ على مناسبات نظمه، ووضع له عنوانا، وكان العنوان من اقتراح مشجعيه:

".. **وعمدت إلى ما نشر في بعض الصحف، أو احتوته بعض المذكرات، وضممت بعضه إلى بعضه، مرتباً له على حروف المعجم، ومنبهاً على المناسبة التي دعت إلى نظم القصيدة أو المقطّعة، ثم عرضت على من اقترحوا علي جمعه، فأطلقوا عليه اسم: ديوان، ولقبوه بـ : (خواطر الحياة)**"[1].

وبتواضع شديد، يقترح الشيخ الخضر على قرائه أن ينظروا إلى ما كتب من شعر بعين النقد الموضوعي، متقبلا كل نقد منصف عادل يصدر عنهم:

".. **ودونك ما جمعت ورتبت، فانقده بفكرك الثاقب، وميزان منطقك العادل، عسى أن تنبه على خلل في تأليف الكلام، أو عيب في تصوير المعاني، فإذا فعلتَ، فما هو بأول شعر كشف النقد البريء عما انطوى عليه من هفوات، وإذا محضتك الشكر، فما أنا أول من شكر الناقد البصير على إخلاصه للأدب، وإيثاره الصراحة في الحق على كتم ما تقع فيه الأفكار أو الألسنة من عثرات..**" [2].

بعد هذه الرحلة التي قادتنا إلى تتبع جوانب هامة في شعر مُحَمَّد الخضر حسين الجزائري، كشفت عنه القراءة الموضوعاتية، نخلص – مستنتجين – إلى القول:

– إنّ الخضر حسين، قد تأثر، في حياته بعامل بيئته الدينية الخالصة التي نشأ فيها وترعرع، وجهته – لاحقا — توجيها محافظا.

– إنّ دور أسرته (الوالد، والوالدة، والخال) قد أثمر في تكوينه الأول، ووجهه نحو التكوين الديني المحافظ.

– إنّ شعر الخضر في عمومه، قد كرس للغاية الإصلاحية: اجتماعيا وفكريا وأخلاقيا، إلى جانب ارتباطه بالواقع المعيش: واقع تونس، والمغرب العربي (الجزائر)، والمشرق العربي، والعالم الإسلامي.

---

[1] – الخضر حسين: المقدمة، ص: 8.

[2]– المرجع نفسه، ص: 8.

- إنّ ديوان الخضر "خواطر الحياة " يمثل أغلب أغراض الشعر العربي القديم، إلا أنّ الشعر الإصلاحي كان أبرز أغراضه.

- إنّ المهام التي اضطلع بها الشيخ الخضر (التدريس الزيتوني، والمشيخة الأزهرية، التأليف في مختلف مناحي العلوم والفنون والمعارف..) قد رسمت معالم طريقه الإصلاحي التربوي المحافظ[1].

تعفّفه في شعره:

ولعلو همته، ورفعة شأنه، وعاطر سيرته، أغضى عن بعض فنون الشعر، فلم ينظم إلاّ ما اطمأنّت إليه نفسه، وارتاح له ضميره، وابتغى به وجه الله – سبحانه وتعالى – وعزة الإسلام، وقليل من الشعراء في كل عصر، ومصر من كان على هذه المرتبة الراقية من الإباء والشمم. يقول شاعرنا:

ولم أَنْـــض القريحـــة في نســـيب ولا عـــذلا شـــكوت ولا بعـــادا
فمـــا أهـــوى ســـوى لغـــة ســـقاها قـــريش مـــن بـــراعتهم
وطوقهـــا كتـــاب الله وزاد ســـنا بلاغتهـــا

ومنهم من اتخذ الشعر لبثّ اللهو، وإرضاء الشهوة، فانحط به إلى الدرك الأسفل من الرذيلة، فكان مهرجا شاعرا. يقول الإمام الشاعر:

وفي الشـعراء مـن ضـاقت خطـاه وفاتتـه الحقـائق وهـي
فـراح يخـال لهـو القـول وينفـث في مكـان الرشـد بهتـا
وشـعر العـرب ذو نظـم، فرفقـا بهـا إن شـئت رفقـا، واسـتطعت

من أهم جوانب شخصية الشيخ مُحَمَّد الخضر حسين شاعريته، والواقع أن الخضر حسين ابتدأ ابتدأ حياته الأدبية شاعرا قبل أن يبدأها ناثرا ، فنحن نجد آثاره الشعرية الأولى أكثر اهتماما بالحياة العامة، وأطرف أسلوبا، وأميل إلى التحديد والمطالبة بالإصلاح من نثره، ولكنه سرعان ما انقلب

[1]– ينظر: ديوان خواطر الحياة (قراءة موضوعاتية)، مذكرة ليسانس، إنجاز: رايسي مباركة / ميهوبي سارة، إشراف: أبو بكر مرزوق (ضمن مشروع "مُحَمَّد الخضر حسين الجزائري)، معهد الأدب العربي، جامعة عمار ثليجي (الأغواط)، للموسم الجامعي: 2011 – 2012.

إلى النثر؛ فعبر عن جميع قضايا الحياة، والمجتمع، والفكر، تاركا للشعر بعض المناسبات الخاصة والجوانب الأكثر التصاقا بالعاطفة والوجدان والإخوانيات.

ورغم ذلك فقد ترك الشيخ مُحَمَّد حسين مجموعتين كبيرتين من شعره تكون كل منها ديوانا ديوانا كاملا، وقد جمعت المجموعة الأولى تحت عنوان (خواطر الحياة) عام (1366هـ/1947م)*، أما المجموعة الثانية، فما زالت مخطوطة، وإن كان كثير منها منشورا في الصحف. وربما تكون قد طبعت.

ديوان خواطر الحي:

يقع ديوان "خواطر الحياة" في (207) صفحة من الحجم المتوسط، ويحتوي على زهاء مائة وثمانين قصيدة ومقطوعة، حيث يتجلّى الشاعر فيها قصير النفس في معظمها، إذ إن أكثرها مقطوعات لا تتجاوز الأبيات الخمس إلا نادرا، على أنّ هناك قصائد نادرة مطولة، تصل إلى أربعين بيتا، ونادرا ما تصل إلى ثمانين أو مائة، كما في موشحه (صقر قريش).

وتدور أغراض شعره بين الوطنيات، والإسلاميات، والرثاء، والوصف، والدعوة إلى النهوض، والتحرير من ربقة الجهل والتخلف والحكم الأجنبي، مع عدد من قصائد الوجدان، ثم الإخوانيات، إذا نحن أخرجنا "الإخوانيات" من باب المديح، على اعتبار أنها عواطف مودة وأخوة صادقة، وليست من باب التملق أو الارتزاق بأي حال من الأحوال.

ومما يلحظ على شعر الخضر خلّوه من شعر الهجاء، ومن جميع الأغراض التافهة الأخرى، وهذا، في حد ذاته، ينم عن خلق رفيع، واتجاه نظيف، وكلاهما ليس بدعا في أخلاق الرجل، فهو من عرف بالتمسك بأخلاق الإسلام[1].

الأغراض الشعرية في الديوان:

* قام بطبعه، وتقديمه إلى الناس ابن أخي الشاعر، الدكتور المحامي: علي الرضا الحسيني التونسي.

[1]– ديوان "خواطر الحياة " للشيخ مُحَمَّد الخضر حسين، ضمن: موسوعة الأعمال الكاملة للإمام مُحَمَّد الخضر حسين، جمع وضبط: علي الرضا الحسيني، دار النوادر، دمشق، الطبعة الأولى، 2010. وينظر: ديوان خواطر الحياة (قراءة موضوعاتية للديوان)، مذكرة ليسانس، من إنجاز: رايسي مباركة/ ميهوبي سارة، وإشراف: أبو بكر مرزوق (ضمن مشروع "مُحَمَّد الخضر حسين الجزائري)، معهد الأدب العربي، جامعة عمار ثليجي (الأغواط)، للموسم الجامعي: 2011 – 2012.

ويمكن حصر أغراض شعر الخضر وفق الجدول التالي:

الأغراض	عدد القصائد
الوطنيات	14
الإصلاحيات	32
الرثائيات	10
الوصفيات	25
الوجدانيات	21
الإخوانيات	23
المدحيات	05
التعليميات	11
الفخريات	17
الاجتماعيات	20

نماذج من شعره[1]:

تناول الشيخ الخضر في ديوانه جميع أغراض الشعر، ولكن على طريقة الشاعر الورع التقي، والرجل المسؤول، ممّا يعني أنّ حضور الأغراض الشعرية تتفاوت في حضورها، وفي دلالاتها، وأنّ من الأغراض ما يجاري طريقة العرب في نظمها، في حسها الشعري دون أن نزعم صدقها الشعوري، إلى جانب أغر اض تعفّف الشاعر أن يخوض فيها مثل شعر الهجاء، ولعل هذه العينات قد تعطي انطباعا على فن القول عند الشيخ الخضر.

[1]– مُحَمَّد الخضر حسين: ديوان خواطر الحياة: موسوعة الأعمال الكاملة للإمام مُحَمَّد الخضر حسين، جمع وضبط: علي الرضا الحسيني، دار النوادر، بيروت، ط.1، 2010.

من شعره السياسي:

لما سجن الشيخ بالشّبهة والدّسيسة، في عهد جمال باشا في دمشق، اجتمع في زنزانته بطائفة من المثقفين السياسين، ودار الكلام حول فضل الحضارة والمدنية البادية وحياة البداة، فنظم شاعرنا هذه الأبيات العالية الحس بوطنيتها، وبعدها السياسي[1]:

جرى سمر يوم اعتقلنا بفندق ضحانا به ليل وسامرنا رمس
فقال رفيقي في شقا الحبس: إنّ في الـ الحضارة أنسا لا يقاس به أنس
فقلت له: فضل البداوة راجح وحسبك أنّ البدو ليس به حبس

من شعره الاجتماعي:

يقول الشيخ الخضر في موضوع "النصح في الصداقة "، ونبذ الاختلاف في الآراء، والتعصب إلى الرأي:[2]

تريدَ رفيقًا لا يرى غير ما ترى ويأبى الذي تأباه، وهو نصوح
وغيرك مشتاقٌ إلى صاحب له حجا كسراج الكهرباء لَموح
وما الخلف في الآراء بينكما سوى دليل على أنّ الوداد صريح
ألا خلّياني من حوار معانِد يقول: لسانَ الأعجمي فصيح
وما وعدِ عرقوب بيثرب مخلِفا ولا ماء في أرض العراق يسيحِ
وطلعةَ ذي الوجهين وضاحةَ وطائر من يلْقى البسوس سنيح
ويطري التي تلهو وترجئ غزلَها إلى أن ترى نجم الشتاء يلوح
أعندك برهانٌ يروض مجادلا يميح مع الأهواء حيث تميح

[1] – مُحَمَّد الخضر حسين: الديوان، ص: 140.

[2] – المرجع نفسه، ص: 66، 67.

من شعره الذاتي:

وقال عن أنفته وكبريائه وأخلاقه[1]

إذا ما تلاقينت، وطرفك طامحِ إلى عِزّة، أطرقتَ طرفي تواضعا
وإنْ تلْقني يوما، وأنفك شامخٍ رأيتَ فتىً بين السماكين طالعا
وما ذقت طعم الذلّ، لكنْ أعافه كما عفت سمّا في فم الصل ناقعا
ولا أرتدي بالكبر؛ أسحب ذيله ولو جاء في اسمى الأماني طائعا

ويقول في موضوع العزلة، والاعتزال[2]:

أريد أخا كالماء، يجري على الصفا نقيا، فيصفو لي على القرب والبعد
وأرسلت لحظ الفكر في القوم ناقدا وأوصيته ألاّ يبالغ في النقد
فلا ضير في ود تغاضيت فيه عن لواذع يأتيها الصديق بلا عمد
فعاد وكم لاقى لسانا مماذقا ومن خلفه قلب خلي من الود
ولولا ارتياحي للنضال عن الهدى لفتشت عن واد أعيش به وحدي

يقول الشاعر في وصف بعض مظاهر الطبيعة[3]:

نسج الغمام لهذه الأشجار من غزل الثلوج براقعا وجلاببا
والشمس تبعث في الضحى بأشعة تسطو على تلك الثياب نواهبا
فبكت لكشف حجابها أو ما ترى عبراتها بين الغصون سواكبا

[1] - محمد الخضر حسين: الديوان، ص: 139.
[2] - المرجع نفسه، ص: 77
[3] - المرجع نفسه، ص: 31.

المبحث الثاني

موضوعة الرثاء في ديوان (خواطر الحياة)

دواعي الرثاء عند الشيخ الخضر:

إنّ الكلام عن رحلة الشعر عند الشيخ الخضر حسين، - كما تم ذكره آنفا – قد تمكّننا من الوقوف على بعض دواعي الرثاء عند الشيخ الخضر، كما قد تبرر وجوده في كثير من المناسبات الشعرية.

أولا: أن هذه المقدمة كشفت عن دواعي قول الشعر عند الشيخ الخضر، وأنّه لم يكن متحمسا إلى قوله، إلا إذا نازعته النفس في ذلك، بعيدا عن المباهاة به، أو طلب الشهرة به.

فالشيخ الخضر يفهم جيدا موقف الدين من الشعر والشعراء، ويعرف أيضا الممسموح به والمباح منه*، والمتتبع إلى أغراضه الشعرية* ، أو عناوين قصائده، يدرك أن الأغراض الشعرية الغالبة على الديوان تتناول كل ما ارتبط بأحوال الأمة العربية الإسلامية، ممّا يجعل الشيخ الخضر من الشعراء الملتزمين بقضايا الأمة، المؤمنين بأنّ بوظيفة الأدب والشعر تكمن في التوجيه والإصلاح، والتربية والأخلاق، وعلى معاني الشعر أن تكون شريفة المقاصد، تدعو إلى الخير والحق، ومن هنا، تغيب الأغراض الخسيسة، كالهجاء والمدح المتملّق، والفخر المتعصب، والغزل المحظور.

ثانيا: أنّ أولّ شعر صدّر به الشاعر ديوانه هو مقطع من قصيدة رثائية، قالها في أمه، وهي تعكس عندنا أمرين:

الأمر الأول: أنّ هذه الأبيات الرثائية تقوم مقام كلمة الإهداء، وأنّ الشاعر اختار – إن كان هو صاحب الاختيار – أصدق غرض عند الشعراء، وهو غرض الرثاء، ممّا يعكس لدينا صدق تجربته الشعرية، ونبل مشاعره الإنسانية، وعمق بره بأمه، حية وميتة.

* ينظر: ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: صلاح الدين الهواري/ هدى عودة، دار ومكتبة الهلال، القاهرة، ط.1، 1996، ص: 41.

* ينظر: جدول الأغراض الشعرية السلبق.

الأمـر الثـاني: أنّ الاستفتاح برثاء الأم في الإهداء، والاستفتاح برثاء فلسطين، في أول الديوان، ةهو الشعر الذي قاله على فراش المرض، يتناسب تناسبا قويا مع موضوع بحثنا (الرثاء في ديوان الشيخ مُحَمَّد الخضر حسين)، من جهة، بل ويشجعنا على الخوض في غمار هذا الغرض النبيل، من جهة أخرى.

من خلال هذه المقدمة – أيضا – نستطيع أن نحدّد قصائد الرثاء عند الشيخ الخضر، اعتمادا اعتمادا على مناسبة كل قصيدة عنده، إلى جانب الموضوع الذي تحدّث عنه فيها. ولأجل هذا الغرض، استعنّا بهذا الثبت بحصر عناوين قصائد الرثاء ، والقصائد التي تمت لها بصلة، وفق ترتيبها في الديوان*

القصيدة	الصفحة	فكرتها
أي فلسطين	09	التحسر على حال فلسطين وما آلت إليه
وجه الموت غير كئيب	32	التحسر على حاله وهو في فراش المرض
ثوب المذنب كفن	39	يصف حالة المذنب
خواطر مريض	50	التحسر على حالته وهو على فراش المرض
سوسة العمر	51	يصف فيها – بالعد التنازلي – حياته بسوسة العمر
زهرة الدنيا أخلاقي	54	افتقاد الشاعر لأصدقائه
لم أكن بمداج	55	التحسر والشكوى من امتداد مرض زوجته
يبغي الورد عذبا	58	التحسر على ما آلت إليه أرضه من تدمير
نهضة مصر	66	نهضة مصر ذكرته بالمغرب وما يقاسيه من حروب
بلغ السيل الزبى	68	التحسر على ما أتى به الزمان وتفضيله الموت
بكاء على مجد ضائع	75	رثاء الدولة العثمانية وما آلت إليه
رثاء الوزير	76	رثاء الوزير التونسي الشيخ مُحَمَّد العزيز
خاتم خالقي	81	ينصح بأن امتحان الله لا يزيد إلا قوة في الإيمان

* اعتمدنا في هذا الإحصاء الموضوعاتي على الديوان (خواطر الحياة)، الوارد ضمن موسوعة أعمال الشيخ الخضر حسين. طبعة دار النوادر، دمشق، ط. 1، 2010، المجلد السابع. وعلى مذكرة (ليسانس)، من إنجاز: رايسي مباركة/ ميهوبي سارة، وإشراف: أبو بكر مرزوق (ضمن مشروع "مُحَمَّد الخضر حسين الجزائري)، معهد الأدب العربي، جامعة عمار ثليجي (الأغواط)، للموسم الجامعي: 2011 – 2012.

أموت مجليا	82	تفضيل الموت والتضحية من أجل العلم على أن يعيش في خمول وسبات
بين المستشفى والمسجد	82	ينصح بضرورة التمسك بالله في السراء والضراء
فلسطين	92	التحسر على فلسطين والذل والهوان الذي آل إليه العرب
كذلك كان في الدنيا علي	99	رثاء للمرحوم علي محفوظ
تشطير بيتين	100	يناجي الرسول ﷺ
على لسان قلم ناضل عن الحق	105	قيلت ردا على كتاب "في الشعر الجاهلي لطه حسين "
قاذفات القنابل	107	التحسر على ما خلفته يد الأعداء من دمار
عهد الشبيبة والمشيب	109	يعبر عن حنينه إلى أيام الشباب
أمينة عليل	110	أمنيته برؤية أرضه محررة
ذكرى	111	تألم الشاعر لما يقاسيه شعبه وأبناء وطنه من اضطهاد جائر
رثاء أبي حاجب	129	التحسر على فقدان أستاذه الشيخ سالم أبي حاجب
اعمار زائفة	131	الكشف عن الأعمار المزيفة لكل من طبقات الناس
تحية المقام النبوي ومناجاة الرسول	135	تحية للمقام النبوي ومناجاة للرسول وعرض لحال المسلمين
لم أذق طعم الذل	139	التعبير عن شموخه وعدم خضوعه للذل
مناجاة النفس	142	يناجي نفسه وهو على فراش المرض
ولقد ذكرتك	154	حديث عن المتيم الذي لا يروعه شيء وان كان على أعتاب الموت
انت ريحانة الحياة	154	وصف إحساسه عند توديع أحد أصدقائه
صرخة الغرب	157	يصور صرخة المغرب واحتراقه وغيظه لما حل على أرضه جند عريب
الخلافة و الانقلاب التركي	163	يصف ما جرى للأتراك عند الانقلاب على الخلافة الإسلامية
على ضريح صلاح الدين	166	يصور افتخاره بالمجاهد العظيم صلاح الدين الأيوبي
رثاء	170	يعبر عن حزنه وألمه بعد وفاة زوجته
هي ملقى الضدين	189	يصور سخطه على الحياة بسبب ما تلقاه من ضرر
ذكر المولد النبوي	193	يمجد فيها الرسول عليه الصلاة والسلام

بكاء على قبر	199	رثاء والدته التي كانت نبع استقامته وخشيته من الله
برقية الشوق	207	يعبر عن شعوره لما مر على المكان الذي يقيم فيه صديقه الشيخ مُحَمَّد الطاهر بن عاشور
في الحبس	208	تحسره عن حبسه الذي قيده عن خدمة الإسلام
مشاهدتي في الحجاز	210	يصف رحلة الحجاج
رضيت عن اغترابي	218	يعبر عن رضوانه باغترابه عن وطنه
خانها حراسها	223	تحسر الشاعر على حال الذي جرى بالأستانة
الدعاء للميت خير من تأبينه	224	ينصح فيها بالدعاء للميت
هاهنا الشمس علوم	231	يذكر فيها ما خلفه خاله الشيخ مُحَمَّد الملكي من أعمال في خدمة الحق بعد وفاته
دقاقة الأعناق	234	ينصح فيها بكل ما وافته دقاقة الأعناق
ويحها من ساعة	238	ينصح فيها بعدم إتباع هوى النفس والدنيا
هي فطرة	241	يفضل فيها عهد الشباب على عهد الشيوخ
لوعة الفراق	242	يصور فيها لوعة فراقه من ربعه
رثاء أحمد تيمور باشا	243	يرثي فيها المرحوم تيمور باشا ويترحم عليه
لماذا يبكي الطفل ساعة ولادته	244	يصف فيها ما يلاقيه الإنسان في الدنيا بعد ولادته
العمر وعاء	247	ينصح فيها أن الإنسان مهما بلغ من ثقافة ومهما استطاع من مرمى فلا ينسى النظر إلى الله

وعلى أساس هذه العلاقات، وتفرع مقاصدها، تتحدّد لدينا أنواع قصائد الرثاء عند الشيخ الخضر، إذ نجد منها:

رثاء النفس:

فقد يبكى الشاعر نفسه ساعة المرض، وفي لحظات شعر أنّها لحظة الاحتضار، وأنّ الموت كان أقرب إليه من حبل الوتين، فيفزع الشاعر الى بعض الأبيات، يصور فيها كارثته، أو يصور فيها ألمه ، وحزانه على فراق الدنيا ومن تعلّق بهم فيها.

وما أكثر المرات الذي دخل فيه الشيخ الخضر المستشفى، ضعيف البنية، ضعيف دقات قلب، يرهقه الخفقان، فلا يجد غير الدعاء

عليـــل، ومـــا لي علـــة غـــير رجفـــة تهـــز فـــؤادي يمنـــة ويســـارا
ألمـــت كإلمـــام النـــذير لمـــن طغـــى ولم تتخـــذ ذكـــرى المصـــير شـــعارا
ويا ليتـــه طهـــر يعيـــد صـــحيفتي كمـــا ســـطعت شمـــس الســـماء نهـــارا
إذن، لا أبالي أن أُلقّـــى مصـــرعي وألـــبس مـــن تـــرب الضـــريحِ دثارا

وكثيرا ما كانت لحظة دخوله إلى المستشفى لحظة مراقبة نفسية، يسأل فيها الذات عما فعلت بجسدها، وبنفسها، وبعقلها، وهل أدت مهمتها التي خلقت لأجلها. إنّها لحظة تشتد فيها محاسبة النفس[1]:

أرقٌ، وهـــل يبغـــي القـــريح ســـوى والقلـــب خفّـــاقٌ كقادمـــة القَطـــاة
لا تـــرهقيني، يا حيـــاةُ، ضـــنى، أمـــا يكفـــي خطـــوبُ كالأســـنّة في اللَهـــاة
مـــا أنـــت ملقيـــةُ بسلْـــم، أفتنـــى في ظلّـــــه الضـــــافي مفـــــاخر
وإذا طغـــى سقـــم ليســـلمني إلى بطـــن الثـــرى، أيقظْـــت أجفـــانَ الأُســـاة

وهذه قصيدة قالها على فراش المرض، بالقاهرة، يعبر عن هذه الحالة من الخواطر، مبديا الجلد والتصبر ما استطاع[2]:

أقـــولُ، فـــلا أرتادُ غـــير خصـــيبِ وأنظـــم، لكـــن لا أطيـــل نســـيبي
أجـــدُّ، وإنْ رام النـــديم دعابـــة فلـــم تـــر غـــير الجـــدّ عـــين رقيبـــي
أحـــثُّ إلى داعـــي المعـــالي مطيـــتي ولســـت، إذا يـــدعو الهـــوى بمجيـــب
ومـــا برحـــتْ هـــذي الحيـــاةُ تروعنـــي بكبـــوة آمـــال وفقـــد حبيـــب

[1] – محمد الخضر حسين، الديوان، ص: 50.
[2] – المرجع نفسه، ص:32.

وفي مناجاة نفسية، سنحت للشاعر خاطرة شعرية، لما كان في مستشفى الروضة بالقاهرة، حيث أقام به ستة عشر يوما لإجراء عملية جراحية، يحث النفس على الصبر، والثقة فيالله، الله، والامتثال إلى جاء به القرآن من حكم وعبر ، إذ هو الملجأ الآمن[1]:

مسها سقم وفي الأسقام ما كان طهرا من ذنوب سالفه
تتلقّاه على صبر، وإنْ كان رحلا لمنون خاطفه
ثقة منها برحمى قادر ما لكرب من سواه كاشفه
فاحذي أيتها النفس هوى يسترق القلب قبل العاطفه
هو ذا الفرقان يلقى حكما تتملاّها فهوم ثاقفه
عصمة من كل ما تكبو به نظرات الفيلسوف القائفه
فرد ي منهله في لهف تجدي طب النفوس اللاهفه

رثاء الأهل والأقارب:

وهي ميزة الرثاء الأولى، حيث يكون الأقربون الأولى بالمساندة والسلوى عند الأمر الجلل، وكأن الندب والنواح في أصله، إنّما يكون على الأهل والأقارب. يقول الشيخ الخضر حسين في رثاء والدته يذكر مصيبة الموت عليه[2]، :

قطّب الدهر، بأبديت ابتساما وانتهى الخطب فيما قلت سلاماً
لست أدري أنّ في كفيك يا دهر رزءاً يملأ العين ظلاما
فإذا العين ترى من كثب مهجتي ناراً ، ومذكيها
كيف تخفيها أكف في الثرى كيف تلقى نفسي الأخرى حماما .
أودعوها قعر لحد، ضربوا فوقها من لازب الترب ركاما
يا سقاة الترب ماء، هاكم عبراتي؛ إنّ في الجفن جماما

[1] – مُحَمَّد الخضر حسين، الديوان، ص: 142.

[2] – المرجع نفسه ص: 199.

وبعد أن عبر عن حرقة الموت، راح يأبن الوالدة الأم الرؤوم الرحيم، وقد صنعت منه رجلا كريما عزيزا

أفـــــلا يبكـــــي الفـــــتى سـهرت مـن أجلـي الليـل، ونامـا
وانثنـــــــــت تَرشـــــــفه مـــذْ لهـــا عـــن لـــبن الثـــدي
" بنـــت عـــزوز"، لقـــد خشـــــية الله، وأن نرعـــــى
ودرينـــا منـــك أن لا نشـــتري بمعالينـــا مـــن الـــدنيا حطامـــا

ويظل الحزن يخيم على شاعرنا الشيخ الخضر حين يبتلى بفقد الزوجة البارة الصالحة (السيدة (السيدة زينب)، وهو بالقاهرة، فيبكيها بصدق عاطفته ورهافة حسه، وصفاء تعبيره، فيقول[1]:

أعاذلُ، غض الطرف عن جفني الباكي فخطـب رمـى الأكبـاد مـني بأشـواك
ولي جـــارةٌ أودى بهـــا ســـقم إلى نـــوى دون منآهـــا المحـيط بأفـــلاك
أيا جـــارتا، عهـــد اللقـــاء وصـمتك، إذْ أدعـوك، آخـر ملقـاك
أجـــارةُ، هـــذا طـــائر المـــوت حـــائم ليـذهب مـن زهـر الحيـاة بمجنـاك

ويذكر فاجعة الموت، ولوعة الفراق بقلب دام:

وكيـــف يـــروم الصـــحب مـــني ومركبـــة حـــدباء أرســـت بمينـــاك
وكنـــت ألاقـــي كلمـــاّ جئـــت فمـالي ألاقى اليوم صبيحة منعـاك
حنانيـــك هـــل ســـاءتك مـــني فـــأنكرت دنيـــانا وآثـــرت

وحين تزول مصيبة الموت، ويرتدذ إلى رشده، يدرك حكمة الله ، ويوقن أنّها اختارت جوار ربه عن جواره، فليس له إلاّ أن يعزي النفس بذلك:

[1] – مُحَمَّد الخضر حسين، الديوان، ص: 170.

ويبعـــث أشـــجاني هـــديل تنـــوح كـــأنّ الطـــير في الجـــو
أجـــول بفكـــري ابتغـــي لي قربـــة أمـــت بهـــا عنـــد الـــدعاء
تجرعـــت مـــر الصـــبر علـــي حسـابي،وعقباي السليمة عقبـاك
فطـوبى لـك القـربى لـدى الله منـةٌ ونـــزلُ كـــريم في منـــازل

وينظم الشيخ الخضر قصيدة رثاء في خاله الشيخ مُحَمَّد المكي بن عزوز، الذي كان يرعاه ويهتم بتدريسه وتكوينه العلمي، وقد زار قبره باسطنبول، بعد شهر من وفاته، وقال هذه القصيدة، يذكر فيها ما خلفه من أعمال جليلة في خدمة الحق، والدين. يقول:

رب شمـــــــــس طلعـــــــــت في و تـــوارى في ثـــرى الشـــرق سناهـــا
هـــــا هنـــــا شمـــــس علـــــوم بعـــد أن أبلـــت "بترشـــيش" ضـــحاها
بفـــــؤادي لوعـــــة مـــــن فقدهـــــا كلمـــــاّ أذكـــــره اشـــــتدّ
أيهـــــا الراحـــــل قـــــد روعتنـــــا بفـــــراق حـــــرم العـــــين
لـــــك نفـــــس ســـــرحت همتهـــــا في مراعـى العلـم مـن عهـد صـباهاَ
صـــــــــاعرت للهـــــــــو في ذرى العليـــاء أهـــداف هواهـــا
مـــــن علـــــوم اللغـــــة الفصـــــحى إلى حكمـــة الشـــرع إلى علـــم ســـواها
لغـــــة العـــــرب ثقـــــاف للنـــــهى وعلـــوم الـــدين نـــبراس هداهـــا
ورجـــــــال بعثـــــــوا أرواحهـــــــم في قـــراطيس تنـــاجي مـــن وعاهـــا
لم تعـــــش فيهـــــا غريبـــــا فقـــــرا بـــةَ أهـــل النبـــل أحكمـــت عراهـــاَ
طـــب مقامـــا يا "بـــن عـــزوز"، فقـــد كنـــت تعطـــى دعـــوة الحـــق مناهـــا

رثاء البلدان:

لم يبك شاعرنا الامام الخضر حسين" الأفراد، فحسب بل بكى – أيضا – الدول التي زالت، والبلدان التي خرجت، ولعل أول دولة بكاها هي فلسطين يقول[1]:

[1] – مُحَمَّد الخضر حسين، ص: 9.

نصـــــب البغـــــاة علـــــى ذراك وكســـوا مرابعـــك الحســـان دمـــاء
كنـــت الثـــرى ويارك الآجـــام لا يبـــني حواليهـــا الجبـــان خبـــاء
وبنـــوك أشـــدّ مـــن يجـــس طباعهـــا لم يلـــــــق إلاّ نخـــــــوة
ولقـــــد عهـــــدتك والحيـــــاة ورباك تزهـــــو بهجـــــة ورواء

وفي قصيدة أخرى يقول في فلسطين[1]:

"وخـــــبرهم وأنـــــت بهـــــم بمـــــا فعلتـــــه جاليـــــة
وذكـــــر آل يعـــــرب أيـــــن "بأنّ الـــذلّ شنشـــنةُ العبيـــد"
وأن نفـــوس هـــذا الخلـــق تأبى حيـــاةٌ تحـــت ســـيطرة المســـود
وان خضـــعت لهـــا فقـــد اســـتحلت لغـــير اليهـــا ذلّ السُّـــجود

ويستمر الشاعر في بكاء الوطن، موجهاً رثائه هذه المرة إلى "المجد الضائع"، حين وجد للدولة العثمانية شيئاً من الضعف، ولقنصل فرنسا أمام قناصل الدول الأوروبية شيئا من النفوذ. يقول الخضر":

بـــــين الجـــــوانح همـــــة تســـمو الى أمـــد بعيـــد
نهضـــت كمـــا تبقـــي العـــلا والعـــزم كالســـيف الفريـــد
أدمـــى فـــؤادي أن أرى الـــ أقـــلام ترســـف في قيـــود
وأرى سياســـة أمتـــي في قبضـــة الخصـــم العنيـــد
فهجـــرت قومـــاً كنـــت في أنظـــارهم بيـــت القصيـــد
وحســـبت هـــذا الشـــرق لم يـــبرحْ علـــى عهـــد الرشيـــد
يســـع الجهـــود إذا تضـــا يقـــت الـــبلاد علـــى الجهـــود
ويقـــول يـــوم أبثّـــه بعـــض الأســـى هـــل مـــن مزيـــد؟
فـــإذا المجـــال كأنـــه مـــن ضـــيقه خلـــقُ الوليـــد

[1]- محمد الخضر حسين: الديوان، ص: 9.

وفي قصيدة أخرى قالها، عندما وقف على قبر"صلاح الدين الايوبي" عند زيارته لضريحه في دمشق[1]:

لـــو لم تَبلّغْـــك الحيـــاةُ منَـــاكا لكفـاك أنـكَ قـد قهـرت عـداكا
لـــك ســـيرة كـــادت تمثـــل بشـــراً ينـــافس في العـــلا أملاكـــا
ومفـاخر يـوم استغاث الشـرقُ مـن خطـــر ألمَّ، ولم يجـــره سواكـــا
صـرخوا النفـير وأطمعـوا أحشـادهم في ثـل عرشـك واقتحـام حماكـا
حملـوا الصـوارم و القنـا بحماسـة وأتـوا ميـادين القتـال وشـاكا
قلت "الجهـاد"، فمـاج حـول لوائـك ـــسامي فيـالق لا تهـاب عراكـا
ولقيـــتهم بعزيمـــة لا تنثـــني والـــرأي نـــبراس يـــؤمُّ خطـــكا
وإذا البطولـــة عـــززت بدرايـــة كانـت لإنقـاذ الشـعوب ملاكـا
عـــادوا بخيبـــة آمـــل، وتمـــلّأت مـــن مجتـنى النصـر المكـين نـداكا
عـــادوا ولم يخُ لمـــد بهـــم وهـــن إلى يأس، وظلّـــوا يفتلـــون شـــباكا
حـــتى إذا أخـــذ الكـــرى بجفوننـــا زحفـــوا ومـــا لاقـــوا قنـــا كقناكـــا
أو مـا سمعـت رطانـة الإفـرنج مـن حـول الضـريح تخـوض في ذكراكـا
وكـأنني بـك قـد هممـت بوثبـة أسـد الهصـور لـو اسـتطعت حراكـا
جاسـوا المـدائن والقـفارا وأرصـدوا في كـــل واد غاشمـــا فتـــاكا
يا ليتـــــني أدري ومثلـــــك بمثالـــه بـــين الـــورى ويحـــاكى
أيتـــاح للشـــرق المعـــذّب ذائـــد يرمـــي ويبلـــغ في النضـــال مداكـــا؟

[1] – مُحَمَّد الخضر حسين: الديوان، ص: 187.

في المديح النبوي:

قد لا يتناسب المديح النبوي الشريف مع تيمة الرثاء ثي دراستنا، لبعد العلاقة بين الغرضين من حيث الظاهر، غير أنّ هناك خاصيتين في المديح النبوي يمكن أن تقحم هذا الغرض الديني ضمن الرثاء.

الأول: أنّ الرثاء هو غرض المدح بالأصل، كونه يصف محاسن الميت في حياته، وهو الذي يمثّله التأبين خير مثال.

الثانية: أن المديح النبوي مدح للرسول الكريم في حياته وبعد وفاته، ولم يسم الناس ما قيل فيه بعد وفاته رثاء، لكونه سيبقى حيا في نفوس المسلمين إلى يوم الدين، ومن ثم قد يكون التأبين صورة من هذا المقصد.

من قصيدة ألقاها أمام المقام النبوي سنة 1331هـ، يناجي بها الرسول الكريم:

أحييك، والآماقُ ترسل مدمعا كأني أحدو بالسلام مودعا
وما أدمع البشرى تلوح بوجنة سوى ثغر صب بالوصال تمتعا
وقفت بمغنى كان، يا أشرف الورى، لطلعتك الحسنى مصيفا ومربعا
فذا موقف لامست فيه بأخمصي أجلَّ من الدر النضيد وأرفعا
وذلك مرقى كنت تصدع فوقه بما حاز في أقصى البلاغة موقعا
وذاك مصلّى طالما قمت قانتا به، ويقوم الصحب خلفك خشعا
وذي حجرةٌ كان الأمين يؤمها بوحي، فكانت للشريعة منبعا

وسوف يستغل الشاعر هذا الوقوف المجيد ليبكي الحالة التي وصل إليها المسلمون[1]:

وأروع ما شق الفؤاد بحسرة وهاج به الأشجانَ حتى تقطّعا
تخاذلُ حالُ المسلمين، وما أتي من الخطب في أرجائهم وتجمعا
وما شأنُنا إلاّ كعقد تناثرت جواهره في سطح أحدب أنزعا
فهاذا يحاذي في قضاياه نزعة تخط وراء الناس للحق مرتعا
وهذا يصوغ القول في قالب يرى بجانبه قول الشريعة أوسعا
وذاك ينادي بالضلالة ماسحا بصبغة دين كي يغر ويخدعا
ونحْنُ نا على الآذان نومةَ جاهل بما يضع المستيقظون لنصرعا
ولم نستفق للقوم حتى تحفّزوا وأوجس كل بين جنبيه مطمعا
ولم نستفق للقوم إذ كل انتضى ليظفر باستعبادنا السيف مقرعا
ولم نستفق للقارعات وقد جنت إلى مهجة الإسلام حتى تصدعا
وفي الناس من حاك الأياس بصدره فجرد أفراس الجهاد وأقلعا
وندب درى صرفَ الليالي، وأنّها تزلّ بأعلام، وتونس بلقعا
فقام على جدّ يهيب بقومه ليرفأ فتقا أو يشيد مصنعا
يقول أناس إنّما الدين عثرة بسابلة العمران تهوي بمن سعى
رمى بهم التقليد في إثر ملْحد ولم يكشفوا عن ميسم الحق برقعا

ويختمها باسفاقة في الأمة توشك أن تعيد المجد الضائع، بعودتها إلى الدين[2]:

تجلّيت في شعب جرى في عروقه دم الكبر، وارتاد الغواية إمعا
تجلّيت، والبغضاء تشوي صدورهم بنار فاصاتها قلوبا وأضلعا
فلقنّتهم كيف الطموح إلى العلا إلى أن علوا فوق السيماكين مطلعا
عليك سلام الله ما انسجم الحيا وحيا صباح بالضياء وودعا

[1] – مُحَمَّد الخضر حسين: الديوان، ص: 154

[2] – المرجع نفسه، ص: 154

الفصل الثاني

بنية قصيدة الرثاء عند الشيخ الخضر

المبحث الأول

بعض ملامح بناء المضمون في رثاء الشيخ الخضر

علاقة الرثاء بالشاعر:

عرضنا في الفصل الأول من هذا البحث جدولا لعناوين القصائد التي يمكن أن تدخل ضمن موضوعة الرثاء، بطريقة مباشرة، وغير مباشرة.

غير أنّه من الإمكان أن نصنّف هذه الرثائيات بحسب المناسبة، أو بحسب علاقة الشاعر بمضمونها، إذ نجد من القصائد الرثائية:

ما ارتبط بذاتية الشاعر: وهي ترتبط بـــــ:

شخصية الخضر، وتكوينها النفسي: فقد كان كثير المرض، وتردّد صداه في شعره، إذ معظم ما كتبه كان مرتبطا بفكرة الموت التي كانت تراوده أثناء وجوده بالمستشفى، لا عن خوف أو جزع، بل عن اعتقاد ويقين.

شخصية الخضر، وتكوينها الروحي: فهو رجل دين، ومن ثم فإنّ تكوينه الروحي يقتضي أن يكون قريب من الله – سبحانه وتعالى – يستحضره في ساعة، يرجوه في دنياه، ويتوق إلى لقائه في أخراه.

شخصية الخضر، وتكوينها الفكري: حين يتأمّل في حقيقة الإنسان، وفلسفة الوجود، وثنائية الموت والحياة

ما ارتبط بحياته العملية، ومسؤولياتها:

المسؤولية العلمية: بوصفه عالم دين، ورجل علم، ورجل تربية، ورجل فكر، ورجل أدب..

المسؤولية الروحية: بوصفه رئيس مشيخة الأزهر أعظم مراكز الإفتاء الديني، وهي مسؤولية عظيمة لا بد أن يشعر بثقلها، وأمانة حملها أمام ربّه.

ما ارتبط بحياته الخاصة وعلاقاته الاجتماعية:

- **علاقة الخضر بأسرته:** أمّه، وزوجه
- **علاقة الخضر بعائلته:** خاله
- **علاقة الخضر بمعارفه:** أساتذته، وأصدقائه، وبمن عرفهم، فتعلّق به على مدار حياته.

ما ارتبط بالهمّ العام: (الواقع العربي، والإسلامي، والإنساني)

قضايا الوطن العربي: وما يرتبط بأوضاعه التاريخية (السياسية والاقتصادية والاجتناعية)، فتدرج قضايا الاستبداد، وقضايا الاستعمار، وقضية المغرب العربي.

قضايا العالم الإسلامي: فتدرج قضية الأندلس، وقضايا المسلمين في كلّ مكان، وما يثار حولها من صراعات دينية ومذهبية وفكرية. ويدرج تحت هذا العنصر ما يرتبط بالمناسبات الدينية، مثل مناسبة "المولد النبوي الشريف"، وصور استغلالها من أجل الصالح الإسلامي العام

قضايا الإنسان: وما يستوجب من احترام لحقوق الإنسان، دون النظر إلى الانتماءات الدينية أو القومية أو الخاصة.

الشاعر وأنواع الرثاء:

وعلى أساس هذه العلاقات، وتفرّع مقاصدها، تتحدّد لدينا أنواع قصائد الرثاء عند الشيخ الخضر، إذ نجد منها:

رثاء النفس:

فقد يبكى الشاعر نفسه ساعة المرض، وفي لحظات شعر أنّها لحظة الاحتضار، وأنّ الموت كان أقرب إليه من حبل الوتين، فيفزع الشاعر الى بعض الأبيات، يصور فيها كارثته، أو يصور فيها ألمه، وحزانه على فراق الدنيا ومن تعلّق بهم فيها.

وما أكثر المرات الذي دخل فيه الشيخ الخضر المستشفى، ضعيف البنية، ضعيف دقات قلب، يرهقه الخفقان، فلا يجد غير الدعاء

عليل، وما لي علة غير رجفة تهزّ فؤادي يمنة ويسارا
ألمّت كإلمامِ النذيرِ لمنْ طغى ولم تتّخذ ذكرى المصير شعارا
ويا ليتهُ طهرٌ يعيدُ صحيفتي كما سطعت شمس السماء نهارا
إذن، لا أبالي أن أُلقّى مصرعي وألبسَ من تُرْب الضريحِ دِثارا

وكثيرا ما كانت لحظة دخوله إلى المستشفى لحظة مراقبة نفسية، يسأل فيها الذات عمّا فعلت بجسدها، وبنفسها، وبعقلها، وهل أدت مهمتها التي خلقت لأجلها. إنّها لحظة تشتد فيها محاسبة النفس[1]:

أرقٌ، وهل يبغي القريحُ سوى السُّباتِ والقلبُ خفّاقٌ كقادمةِ القَطاةِ
لا ترهقيني، يا حياةُ، ضنًى، أما يكفي خطوبُ كالأسنّةِ في اللَهاةِ
ما أنت ملقيةُ بسلْمٍ، أفتنى في ظلّه الضافي مفاخرَ
وإذا طغى سقمٌ ليسْلمني إلى بطنِ الثرى، أيقظْتِ أجفانَ الأُساةِ

وهذه قصيدة قالها على فراش المرض، بالقاهرة، يعبر عن هذه الحالة من الخواطر، مبديا الجلد والتصبّر ما استطاع[2]:

أقولُ، فلا أرتادُ غيرَ خصيبٍ وأنظمُ، لكن لا أطيلُ نسيبي
أجدُّ، وإنْ رام النديمُ دعابةً فلم ترَ غيرَ الجدّ عينُ رقيبي
أحُثُّ إلى داعي المعالي مطيّتي ولستُ، إذا يدعو الهوى بمجيب
وما برِحتْ هذي الحياةُ تروعُني بكبوةِ آمالٍ وفقدِ حبيبِ

وفي مناجاة نفسية، سنحت للشاعر خاطرة شعرية، لمّا كان في مستشفى الروضة بالقاهرة، حيث أقام به ستة عشر يوما لإجراء عملية جراحية، يحث النفس على الصبر، والثقة في الله، والامتثال إلى جاء به القرآن من حكم وعبر ، إذ هو الملجأ الآمن[3]:

مسّها سقم وفي الأسقام ما كان طهرا من ذنوب سالفه
تتلقّاه على صبر، وإنْ كان رحْلا لمنون خاطفه
ثقة منها برحمى قادر ما لكرب من سواه كاشفه

[1] – محمد الخضر حسين: الديوان، ص: 50.
[2] – محمد الخضر حسين، الديوان، ص: 32.
[3] – محمد الخضر حسين، الديوان، ص: 142.

فاحـــــذي أيّتـــــها الـــــنفس هـــــوى يســـترق القلـــب قبـــل العاطفـــه
هـــــو ذا الفرقـــــان يلقـــــي حِكمـــــا تتملاّهـــــا فهـــــوم ثاقفـــــه
عصـــمة مـــن كـــلّ مـــا تكبـــو بـــه نظـــرات الفيلســـوف القائفـــه
فـــــــرِدِي منهلـــــــه في لهـــــــفٍ تجـــدي طـــب النفـــوس اللاهفـــه

رثاء الأهل والأقارب:

وهي ميزة الرثاء الأولى، حيث يكون الأقربون الأولى بالمساندة والسلوى عند الأمر الجلل، وكأن الندب والنواح في أصله، إنّما يكون على الأهل والأقارب. يقول الشيخ الخضر حسين في رثاء والدته يذكر مصيبة الموت عليه[1]:

قطّـــب الـــدهرُ، بأبـــديْتُ ابتســـاما وانتهى الخطـــبُ فيمـــا قلـــت ســـلاماً
لســـت أدري أنّ في كفيْـــكَ يـــا دهرُ رزءاً يمـــلأ العـــين ظلامـــــــا
فـــإذا العـــين تـــرى مـــن كثـــبٍ مهجتي ناراً ، ومُذكيها ضرامـــــــا
كيـــف تخفيهـــا أكـــف في الثّـــرى كيف تلقَـــى نفســـيَ الأخـــرى حمامـــا
أودعُوها قعرَ لحدٍ، ضربـــــــوا فوقهـــا مـــن لازبِ التُـــرب ركامـــــا
يا سقاةَ التُربِ ماءً، هاكـــــــمُ عـــبراتي؛ إنّ في الجفـــن جمامـــــــا

وبعد أن عبّر عن حرقة الموت، راح يأبّنُ الوالدة الأم الرؤوم الرحيم، وقد صنعت منه رجلا كريما عزيزا

أفلا يبكي الفـــتى نازحـــــــــةً سهرت من أجلـــي الليـــل، ونامـــا
وانثنتْ تُرشفُه مـــــــــن أدبٍ مذْ لها عن لبنِ الثدي فطامـــــــا
"بنت عزّوزٍ"، لقـــد لقّنتِنـــــــا خشية الله، وأن نرعى الذمامـــــا
ودريْنـــــا منـــــك أن لا نشـــــتري بمعالينـــا مـــن الـــدنيا حطامـــــا

[1] – محمد الخضر حسين، الديوان، ص: 199.

ويظل الحزن يخيم على شاعرنا الشيخ الخضر حين يبتلى بفقد الزوجة البارة الصالحة (السيدة زينب)، وهو بالقاهرة، فيبكيها بصدق عاطفته ورهافة حسّه، وصفاء تعبيره، فيقول[1]:

أعاذلُ، غضّ الطرف عن جفني الباكي فخطب رمى الأكباد منّي بأشواك
ولي جارةٌ أودَى بها سقمٌ إلى نوىً دون منآها المحيطِ بأفلاك
أيا جارتا، عهد اللقاء وصمتكِ، إذْ أدعوكِ، آخرُ ملقاك
أجارةُ، هذا طائر الموت حائمٌ ليذهبَ من زهرِ الحياة بمجناك

ويذكر فاجعة الموت، ولوعة الفراق بقلب دامٍ[2]:

وكيف يروم الصحب منّي ومركبة حدباء أرست بميناكِ
وكنت ألاقي كلماّ جئت فمالي ألاقي اليوم صبيحة منعاكِ
حنانيك هل ساءتك منّي فأنكرت دنيانا وآثرت

وحين تزول مصيبة الموت، ويرتدذ إلى رشده، يدرك حكمة الله ، ويوقن أنّها اختارت جوار ربه عن جواره، فليس له إلاّ أن يعزي النفس بذلك[3]:

ويبعث أشجاني هديل حمامة تنوحُ كأنّ الطير في الجوّ
أجول بفكري ابتغي لي قربة أمت بها عند الدعاء
تجرعت مرّ الصبر علي حسابي،وعقباي السليمة عقباكِ
فطوبى لكِ القربى لدى الله منةٌ ونزلُ كريم في منازل

[1] – محمد الخضر حسين، الديوان، ص: 170.
[2] – المرجع نفسه، ص: 192.
[3] – المرجع نفسه، ص: 258

وينظم الشيخ الخضر قصيدة رثاء في خاله الشيخ محمد المكي بن عزوز، الذي كان يرعاه ويهتم بتدريسه وتكوينه العلمي، وقد زار قبره باسطنبول، بعد شهر من وفاته، وقال هذه القصيدة، يذكر فيها ما خلفه من أعمال جليلة في خدمة الحق، والدين. يقول:

ربّ شمسٍ طلعت في وتوارى في ثرى الشرقِ سناها
ها هنا شمسُ علومِ بعد أن أبلت "بترشيش" ضحاها
بفؤادي لوعة من فقدها كلماّ أذكره اشتدّ
أيها الراحل قد بفراق حرم العين
لك نفس سرحت همتها في مراعي العلم من عهدِ صباهاَ
صاعرت للهوّ في ذرى العلياء أهداف
من علوم اللغة الفصحى إلى حكمة الشرع إلى علم سواها
لغة العرب ثقاف للنُهى وعلوم الدّين نبراسُ هداها
ورجال بعثوا أرواحهم في قراطيس تناجي من وعاها
لم تعش فيها غريبا بةُ أهل النبل أحكمت عراهاَ
طب مقاما يا "بن عزوز"، فقد كنت تعطى دعوة الحق مناها

رثاء البلدان:

لم يبكِ شاعرنا الامام الخضر حسين" الأفراد، فحسب بل بكى – أيضا – الدول التي زالت، والبلدان التي خرجت، ولعل أول دولة بكاها هي فلسطين يقول[1]:

نصب البغاة على ذراك لواء وكسوا مرابعك الحسان دماءَ
كنت الثرىّ ويارك الآجام لا يبني حواليها الجبان خباءَ
وبنوك أشدّ من يجس طباعها لم يلق إلاّ نخوة
ولقد عهدتك والحياة وربـاك تزهو

[1] – محمد الخضر حسين، ص: 9.

ويستمر الشاعر في بكاء الوطن، موجهاً رثائه هذه المرة إلى "المجد الضائع"، حين وجد للدولة العثمانية شيئاً من الضعف، ولقنصل فرنسا أمام قناصل الدول الأوروبية شيئا من النفوذ. يقول الخضر":

بين الجوانح همة تسمو الى أمدٍ بعيدِ
نهضت كما تبقي العلا والعزم كالسيف الفريد
أدمى فؤادي أن أرى الـ أقلام ترسف في قيودِ
وأرى سياسة أمتيّ في قبضة الخصم العنيدِ
فهجرت قوماً كنت في أنظارهم بيت القصيد
وحسبت هذا الشرق لم يبرحْ على عهد الرشيدِ
يسع الجهود إذا تضا يقت البلادُ على الجهود
ويقول يوم أبثّهُ بعض الأسى هلْ من مزيد؟
فإذا المجال كأنهُ من ضيقه خلقُ الوليدِ

وقد يتّخذ من رموز دولة الإسلام مطيّة يبكي بها المجد الضائع، فقد وقف على ضريح صلاح الدين، وقال[1]:

لو لم تبلغك الحياة منَاكا لكفاك أنكّ قد قهرت عداكا
لكَ سيرة كادت تمثّل للنّهى بشراً ينافس في العلا أملاكا
ومفاخر يوم استغاث الشرق من خطرٍ ألم، ولم يجره سواكا
صرخوا النّفير وأطمعوا أحشادهم في ثلّ عرشك واقتحام حماكا
حملوا الصوارم والقنا وأتوا ميادين القتال وشاكا
قلت "الجهاد"، فماج حول لوائك سامي فيالق لا تهاب
ولقيتهم بعزيمة لا تنثني والرأي نبراس يؤمّ خطاكا
عادوا بخيبة آمل، وتملأت من مجتنى النصر المبين نداكا
حتّ إذا أخذ الكرى زحفوا وما لاقوا قنا كقناكا

[1] – محمد الخضر حسين: الديوان، ص: 166.

أو ما سمعـــــــــــــــت رطانة حول الضريح تخوض في ذكراكـــا
وكـــــــــــأنيّ بـــــــــــك أسدٍ القصور لو استطعت حراكـــا

رثاء الأصدقاء:

وفي رثاء صديقه الذي وقف إلى جانبه، وأواه المرحوم "أحمد تيمور باشا"، وقد بلغه نعيـــه عن طريق الهاتف، فقال[1]:

أهذا الدجى والصبح ما زال خافيا أم الصبح وافي حائل اللون داجيا
أقلب وجهي في الحياة فـــــلا أرى لذيذاً وكان العيش بالأمس زاهياً
حمامـــــــة وادي النّيـــــــل راع هتافك اذ أرملته اليوم شاجيـــــا
سقى دوحكِ الوسميّ وهنا فما لنـــا نرى غصنه الميادَ أغبر ذاويـــــــا
لحـــــى الله صـــــوت الهـــــاتف نعاب مزاب يقرع السمع جافيـــا
أصاخ له صحبي فأنبنـــــأ بـــالتي تسبّ الآسى بين الجوانح طاغيـــا
نعى عبقريّ الشرق تيمور فاعتدى لمنعاه قلبٌ الشرق كالقرح داميـــا
حنا نيك عزّ العلم والمجد والهـــدى فقد كان علاما مجيداً وهاديـــــا
ترحـــــــــــلّ بـــــــــــالتقوى ثناءً كنفح المسك يسطعُ ذاكيـــا
رعى الله قبراً، بل رعى الله روضـــة تبوأهـــا مـــــن كـــــان للعهـــدِ

[1] – محمد الخضر حسين: الديوان، 243.

المبحث الثاني

بعض ملامح البناء الأسلوبي في رثاء الشيخ الخضر

يعتبر الرثاء من أكثر أغراض الشعر العربي، اتساعا، وتداولا، كونه يرتبط بالإنسان وحقيقة وجوده ومصيرة.

ولقد تعدّدت مظاهر قصيدة الرثاء بين: ندب: يظهر فيه الشاعر مرارة تجربة الموت، بشتى صور الأسى والحزن، من بكاء وعويل وتحسّر وكلّ ما يعبّر عن خلجات النفس المكلومة، وتجربته الحزينة المؤلمة لفقد قريب حبيب عزيز. وبين تأبين: هو بمثابة المدح بالنسبة للأحياء، يتولى فيها الشاعر إظهار كلّ حسنة كانت للميت في حياته، فهي تتبعة بعد موته، لتظل صورة للإشادة، والثناء والتذكر والتخليد. وبين عزاء: وهو التماس السلوى وحمل النفس على الصبر أو التصبّر، بالتذكير في مصيبة الموت، والتسليم بقضاء الله وقدره، واستحضار حكمة الله في الحياة والموت، والبعث والنشور، والثواب والعقاب[1].

وللرثاء بنيته الفنية ، ومنه كانت خصائصه، وهي بنية – كما استعراضناها في المدخل – تجعل من قصيدة الرثاء شبيها لقصيدة المدح، لاجتماعهما في ذكر محامد الميت، إلى جانب امتزاج قصيدة الرثاء بأغراض أخرى، عادة ما تكون العلاقة فيها سببيّة، أو مسبّبية، كالحماسة، والفخر، ووصف الحرب.

أمّا في جانبها الشكلي، فلا تخضع قصيدة الرثاء إلى تلك المقدمات الشعرية (المقدمة الطللية والغزلية) الكلاسيكية، إذ تفتتح بحكمة تجسدّ فكرة الموت وقضائه وقدره، وتميل إلى النفس القصير، كونها لا تخضع إلى الصناعة الشعرية إلاّ قليلا، ما لم تصنع للمجاملة، والمناسبة. وفيها تتراجع الصناعة والتكلف، ويفسح المجال للطبع والعفوية[2]

وعلى هذه الاعتبارات الفنية في الرثاء، سنحاول دراسة قصيدة الرثاء عند الشيخ الخضر حسين، ومحاولة تحليلها قدر المستطاع

[1]- غازي طليمات/ الأستاذ عرفات الأشقر: تاريخ الأدب العربي الجاهلي (قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه)، دار الأديبة، حمص – سوريا، ص: 160.

[2]- المرجع نفسه، ص: 205.

الأساليب الحجاجية من خلال الأسلوب الإنشائي والطلبي:

إن أسلوب الرثاء مألوف، سهل بسيط، فالشاعر سهل واضح في رثائه لأن الرثاء، يتطلب الألفاظ السهلة الرقيقة، الصادقة المؤثرة، التي قد تنصرف إلى المبالغة، غير أن هذا العصر (عنصر المبالغة) يخفت في قصائد الشيخ الخضر، كون الأسى والجزع لا يجد إلى قلبه طريقا، ذلك أن أمر الموت قضاء من الله وقدر، والشيخ الخضر يفقه جيدا – وهو الرجل المتدين – معنى "الاحتساب إلى الله".

ولعلّ أقرب الأساليب الموظفة عند الشيخ: الأسلوب الخبري والأسلوب الانشائي. والجدول يوضح لنا أنواع الأساليب الإنشائية والخبرية ودلالة الاستعمال فيها

الأساليب المستعملة	المثال	الأبيات:	الصفحة
قصيدة "أي فلسطين"	ما لليهود استوطنوك وصاعروا -بعد الهوان خدودهم خيلاء؟	09	10
	أفما نبت بهم مواطن لم تطق -مكراً يحوك شفالها وبلاء	10	10
	أفيحسب القاسي الفؤاد ودموعها -ودم الشهيد الماء صهباء	17	10
	أفبعد فتح ابن الوليد وصحبه -للقدس وعد يستحق الوفاء	22	12
	هل من عواطف كالنسيم يمر في -سحر بزهر حديقة غناء	29	12
	أمن المروءة أن ننادي للتيّ -فيها النجاة و لانجيب نداء	31	12
	لم يلق إلا نخوة وأياءَ	03	09
	لا يحتسب من ماء أرضك صائل	06	10
	لا دمع إلا من مآقي خاشع	07	10
	لا حرّ إلا غيرةُ في أنفس	08	10

	لا تأمننّ الدهر إن صروفه -لا تقبل الذهب النضار فداءَ	19	10
	لا تجدوهم بالتحسرّ وحده	31	12
	لا تنهض الاوطان من كبواتها	32	13
	يا من دهى الاوطان وهي أمينةٌ	18	11
القصيدة "رثاء"	أعاذل غضّ الطرف عن جفني الباكي	01	170
	أجارةُ هذا طائر الموتِ حائمُ	04	171
	كيف يروم الصحبّ مني تصبرا	05	171
	أجارة لو شاهدت كيف وقفت في مزاركِ لكن ما ظفرت بنجواكِ	19	172
	لو أدرها طعم المنون فذقه	09	171
	وهيهيات لا انسى مواطن كنت لي مسيلة لا أنسى إلا بمغناكِ	12	171
	ولولاك لم أقضِ البراعة حقها	13	171
	أيا جارتا عهد اللقاء قد انقضى	02	170
قصيدة "أي فلسطين"	كنت الشرى وديارك الآجام لا يبنيّ حواليها الجبان خباءَ	02	09
	ولقد عهدتك والحياة أنيسة ورباك كزهو بهجة ورواء	04	09
	وأعد للعرب الكرام قذيفة -فتاكة او طعنة نجلاء	13	10
	ما وعد بلفور سوى الزبد الذي -يطفوا ويذهب في الفضاء جفاء	21	11
	أفبعد فتح ابن الوليد وصحبه -للقدس وعد يستحق وفاء	22	12

	من مبلغ الحنفاء أمة أحمد -نبأ يطير له الفؤاد هباء	24	12
	تلك الامي عضهنّ بناته -بؤس وهنّ الصامتات حياء	25	12
	نبغي النجاة ولا جهاد كمدنف -يبغي الشقاء ولا يسيغ دواء	36	13
القصيدة "رثاء"	ولي جارة أودى بها سقم الى -نوى دون منآها المحيط فأفلاك	02	170
	وكنت ألا في كلما جئت مؤنساً -فمالي ألا في اليوم صبيحة منعاك	06	171
	وأنت التي حببتّ لي العيش بعدما -سئمت فطب العيش بعض مزاياكِ	15	171
	وإن سامني يوم شكاة تدفقتْ -دموعك من جفن يخال هو الشاكي	16	171
	وعدت الى البيت الكئيب كأنني -خلقت فريداً لست أعرف إلاكِ	22	172
	فطوبى لك القربى لدى الله منةّ -ونزل كريم في منازل نساكِ	27	172

دلالة الحقل المعجمي في رثاء الشيخ الخضر

دلالة المعاني:

إنّ تفاعل الألفاظ فيما بينها، وفي السياق العام لقصائد الرثاء عند الشيخ الخضر هي التي تُبلور التجربة الشعورية شعرا عند صاحبها، فليس السياق اللغوي إلا شارح صادقا لدلالات الألفاظ في هذا الحقل المتباين الحياة / الموت). والمتأمل في رثاء الشيخ الخضر، يجد أنه امتزجت فيها كلّ ألوان الرثاء، من: ندب وتأبين، وعزاء، حيث جاء على النحو الأتي:

دلالة الألفاظ:

الرثاء من أبرز الفنون التي تفرض قاموسها اللغوي، ومعجمها الدلالي على نصّها. إنّها ألفاظ الموت (الموت، المنون، الحتوف، النعيّ، الشجو، الحزن، اللهف، الرزء، الفراق، الفقد، سكرة الموت، الدموع، العويل، الندب، التفجّع، الأسى، التأسّي، التصبّر، العزاء، الرضى بالقضاء والقدر..).

يمكن أن نرصد معجم الرثاء، وفق جداول ألفاظ الرثاء الثلاثة:

ألفاظ الندب:

الحقل المعجمي للندب	الأبيات	الصفحة
لا ترهقني يا حياة	02	50
يذكرنا بمنطقة وتهدى لنا اقلامه عظة وذكرى	08	100
ولقد ذكرتك في ظلام آذنت	01	108
حول الضريح تخوض في ذكراها	12	166
اعاذل غضّ الطرف على جفني الباكي	01	170
لست ادري أن في كفيك يا وهر رزءاً يملأ العين ظلاما	02	200

مهجتي ناراً	03	200
فهيهات أن أنساك ما عشت والآسى يموج بقلبي ما جرتْ فيه ذكراك	11	171
وهيهيات لا انسى مواطن كنت لي مسيلة لا انس إلا بمغناك	12	171

ألفاظ التأبين:

الحقل المعجمي للتأبين	الأبيات	الصفحة
لا تأمنن الدهر إنّ صروفه لا تقبل الذهب النضار فداء	19	11
واسعدي نزلاً الى الملقى الى يوم لا نخشى على الانس انصراما	23	201
طب مقاما "يا ابن عزوز" فقد كنت تعطي دعوة الحق مناها	27	234
واحزم مارأت عيني أريب يقدم قبل أن يغشاه ذخرا	05	100
ولا مثل امرئ يدعو يجدّ الى طرق السعادة مستمراً	06	100
تلين به قلوب لو مددت البنان يجسها للمستصخرا	07	100

ألفاظ العزاء:

الحقل المعجمي العزاء	الأبيات	الصفحة
لا تنجدوهم بالتحسر وحده إن التحسر لا يزيح عناء	31	12
فبكاه من فرط الاسى	03	129
وكنت اعزي النفس	08	171
تجرعت مرّ الصبر على اراه في حسابي وعقباي السليمة عقباك	26	172
تشبُ الآسى بين الجوانح طاغيا	06	243

بناء الصورة عند الخضر

قصيدة (أي فلسطين): الديوان: ص: 09"

نصـــبَ البغـــاة علـــى ذراك يـــواء وكســـوا مرابعـــك الحســـان دمـــاء
كنـــت الســـرى وديـــارك الآجـــام لا يـــبنى حواليهـــا الجبـــانُ خبـــاءَ
وبنـــوكِ أشـــدّ مـــن يجـــس طباعهـــا لم يلـــق إلاّ نخـــوة وإبـــاءَ
ولقـــد عهـــدتك والحيـــاة أنيســـة وريـــاكِ تزهـــو بهجـــة و رُواءَ

إلى قوله :

وتـــرى ابـــن يعـــرب في الصـــفادِ وغـــيره ** طلـــق يجـــرُّ، عمـــا يشـــاء رداءَ
أننـــام عـــن اســـعافهم والـــدين قـــد ** عقـــد ائتلافـــا بيننـــا وإخـــاءَ
هـــل مـــن عواطـــف كالنســـيم يمـــر في ** ســـجرِ بزهـــر حديقـــة غنـــاءَ

وفي القصيدة نفسها يقول الشيخ الخضر:

مـــا ســـادَ قـــوم أشـــربوا شـــحاً وإن بلغـــوا الســـماء شـــجاعة وذكـــاءَ
أمـــن المـــروءة أن ننـــادى للـــيّ فيهـــا النجـــاة ولا نجيـــبُ نـــداءَ
تبغـــي النجـــاة ولا جهـــادَ كمـــدنف يبغـــي الشـــفاء ولا يســـيغُ داوءَ

مناسبة القصيدة: قيلت في مصر على فراش المرض عام 1358هـــــــ.

فكرة النصّ: قصيدة قالها الشاعر منبهاً على الخطر الصهيوني الداهم، وحاثاً المسلمين على الجهاد.

أ- التشبيه:

هل من عواطف كالنسيم يمر في ** سحرَ بزهر حديقة غنـــاءَ

- ما يلاحظ على هذه القصيدة قيام الصورة البلاغية على الأركان العروفة في التشبيه (المشـــبه – الأداة – المشبه به – وجه الشبه)، حيث إنّ الشاعر مثل للنسيم، وهو يمرّ في السحر، بزهر الحديقة الغناء، بهذه الطريقة المباشرة، ممّا أحدث أثرا في تشكيل المعنى، على الرغم من بساطته ومن دون أن تكون هناك مشقة ذهنية في تحديد الأركان. لكن الملفت في هذا التشبيه البسيط، هو في: تحديـــد التشبيه، باعتبار وجه الشبه، والتي نجدها منتزعة من متعدد وكأننا مع تشبيه تمثيل، وربمـــاّ اعتـــبر كذلك .

ويقول في قصيدة نفسها الديوان13":

تبغي النجـــاة ولا جهـــادَ كمـــدنف ** يبغي الشـــفاء ولا يســـيغُ داوءَ

هنا تشبيه لا يقل عن سابقه بساطة وبراعة معا، حيث يرى أن النجاة بلا جهاد، كمريض عليل أن يرد أن يشفى ويصح من علته ومرضه برفضه تناول الدواء النافع الشافي. لهذا قـــد مثـــلّ الذي يريد النجاة والغنيمة والمفازة دون أن يحرك ساكنا، بالذي لم يأخذ بمنطق الأسباب. فقـــدّم المعنى مشفوعاً بصورة لإقرار المعنى في النفس، بوضوح وجلاء مؤيد بالبرهان.

ب- الاستعارة:

يقول الشيخ الخضر (الديوان: 12)

أفبعـــد فـــتح ابـــن الوليـــد وصـــحبه ** للقـــدس وعـــد يســـتحق وفـــاءَ
مـــن مبلـــغ الحنفـــاء أمـــة أحمـــد ** نبـــأ يطـــير لـــه الفـــؤاد هبـــاءَ
تلـــك الايـــامى عضـــهنّ بنابـــه ** بـــؤس وهـــنّ الصـــامتات حيـــاءَ

هنا في البيت الأخير، نجد استعارة مألوفة عند الشعراء، وعند النقاد أيضا، حيـث يشـبه الشيء المعنوي بالشيء المادي (تشبيه الموت بالطائر الجارح، الذي يتخطف النفس).

فالبؤس حالة شعورية معنوية تدرك بآثارها، في حياة الانسان المادية، ومن هنا جاءت هذه الاستعارة المكنية، حيث حذف المشبه به، وكنى عنه بأحد لوازمه، فاستعار الشاعر العض، وهـو صفة ملازمة للحيوان المفترس الضاري، كالأسد والذئب، والكلب وغيرها...، وأسنده الى البؤس، فكأنما هذا البؤس الشديد الضرّ، المشخص في حيوان مفترس، قد فعل فعله الشـرس في هـؤلاء الأيامى أو الأرامل أو الضعيفات.

النص الإحالي وبناء التناص في الرثاء

اقتبس من القرآن في البيت الواحد والعشرون، يطفو ويذهب في الفضاء جفاءَ.

ففي قوله تعالى : [فيذهبُ جفاءَ] سورة الرعد الآية:17"

واقتباس من الحديث الشريف قوله في البيت الأخير: بسخاءِ كف يكشـف الـلأوء، وفي الحديث "من كانت له ثلاث بنات، فصبر على لأوائهنّ كن له حجاباً من النـار"، واسـتعماله الاقتباس من القرآن ليستعير من قوته في معاني شعره.

بناء الإيقاع في الرثاء

الموسيقى في النصّ:

أ/ الموسيقى الخارجية (الوزن والقافية):

استعمل الشاعر البحر "الكامل" في نسج هذه القصيدة، وهو من البحور الملائمة لحال الحـــزين وكل من استمع الى نغماته لا بد من أن يشعر بالأسف، ويعني ذلك ان الشاعر قد أحسن الاختيار للبحر.

وقد جاء الشاعر بترتيب الألفاظ في تركيب ملائم وكان بينها التنسيق، الى تعطي إيقاعـــاً موسيقيا، يجرس في الآذان ويثير العواطف ويهيج النفوس يقول:

نصـــبَ البغـــاة علـــى ذراك لـــواءَ ** وكسوا مرابغـــك الحســـان دمـــاءَ

- أجزاء تفعلته هي: متفاعلن ثلاث مرات في كل شطر فيكون:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن ** تفاعلن متفاعلن متفاعلن

- التزام الشاعر بقافية واحدة في جميع أبيات القصيدة، وهي قافية الألف.

الموسيقى الداخلية:

- وفي قصيدة أخرى رثاء" الديوان: 170":

أعاذل غضّ الطرف مـــن جفـــى البـــاكي فخطب رمى الاكبـــاد مـــنيّ بأشـــواكِ

ولي جـــــارة أودى بهـــــا ســـــقم الى نـــوى دون هنأهـــا المحـــيط بـــأفلاكِ

أيـــا جارتـــا عهـــد اللقـــاء قـــد انقـــض وصـــمتك اذ أدعـــوك آخـــر ملقـــاكِ

أجـــارة هـــذا طـــائر المـــوت حـــائمٌ ليـــذهب مـــن زهـــر الحيـــاة بمنجـــاكِ

- ويقول الديوان:171":

ولـــــولاك لم أقـــــض البراعـــــة حقهـــــا كأن نسيج الفكـــر جيـــك بيمنـــاكِ
لقد صـــنت في الحـــالين عهـــدا فـــلا أرى لـــدى عســـرة إلاّ انطـــلاق مجبـــاكِ

- قوله الديوان 172":

لياليـــــك أيـــــام بمنزلـــــة اللّـــــوى مطلـــع أقمـــار الســـماء بمـــأواكِ
أجارة لو شـــاهدت كيـــف وقفـــت في مزارك يكن مـــا ظفـــرت بنجـــواكِ
اذا لرأيـــت الحـــزنَ يصـــلى بنـــارهِ حشا وكأن الحـــزن شـــدّ بأســـلاكِ

1- مناسبة القصيدة:

نظم الشاعر هذه الابيات في رثاء زوجته الســـيدة زينـــب الـــتي توفيـــت بالقـــاهرة عـــام 1372هـــــــ وكانت بارة صالحة.

2-الغرض الذي قيل فيه النصّ:

تعتبر السيدة زينب – رحمها الله – الزوجة الثالثة وهي مصرية الجنسية تزوج بها الشـــيخ بعـــد استقراره بالقاهرة سنة 1920م-وعاشت معه ثلاثين سنة، قضاها في هناء وطمأنينـــة وانســـجام وتوفيت إثر مرض ألم بها، وقد تأثر الشيخ بهذا المصاب تأثرا كبيراً، ورثاها بهذه القصيدة وتعتبر من اطوال مرثياته، وابلغها حيث تعرض فيها الى خصالها الميدة العالية، ومدى مساعدتها لـــه في كـــلّ الظروف وخاصة عند الشدة.

أ/ الموسيقى الخارجية:

استخدم الشاعر البحر الطويل، في نظم القصيدة وأجزاء تفعلته :

فعولن مفاعلين فعولن مفاعلين ** فعولن مفاعلين فعولن مفاعلين

ويعتبر البحر الطويل، هو الأنسب للموضوعات السردية والوصفية حيث يصف الشيخ الخضر زوجته البارة ويذكر خصالها.

-التزم الشاعر بقافية واحدة في جيمع ابيات القصيدة وهي قافية الكاف،

ب/ الموسيقى الداخلية:

- تظهر فما سبق من دراسة الرثاء في شعر الشيخ الخضر ان الشاعر: احسن اختيار الألفـــاظ والبحر والقافية المناسبة في للغرض بأخيلة رائعة وقوة بلاغية حـــدة في تصـــوير عاطفتـــه الصادقة.

خاتمة

والرثاء صورة تعبيرية راقية عن المشاعر الإنسانية السامية، شعور عميق بالحزن والألم؛ تدركه النفس، فيذعن إلى قوته القاهرة، وتدرك سنة الله في الوجود، وأن هذه المرحلة هي مرحلة يقف فيها عداد الحياة عن الحركة، ليحصى ما استهلكه الناس، من أعمال وأفعال.

يخوض البحث هذه التجربة في تأدب، عند رجل يكاد يكون مغمورا عند أهله، هو أحد شيوخ الأزهر الشريف، الإمام محمد الخضر حسين، وبعين هذا الرجل الباني، نظرنا إلى غرض الرثاء في ديوانه (خواطر الحياة)، فوجدنا ذلك الوجه الآخر للرجل: الرجل الشاعر الأديب الفنان بفكره وعاطفته وبيانه وكتاباته.

أدركنا من خلال المتابعة حقيقة الشعر عند الرجل، ووظيفته الحياتية النبيلة، وطبيعة الأغراض التي كتب فيها، وكيف أنّ اغراض شعرية عريقة قد خفت صوته، كالغزل وشعر المتعة، وأنّ أغراضا اختفت من ديوانه كالهجاء والفخر العصبي، وكيف أنّ الشعر قد توجه إلى غاية تعليمية تربوية جادة وجميلة.

وقف البحث على أنّ الرثاء كان أبرز أغراض الديوان، وقد جاء مناسبا لظروف الشاعر الذي عاش الاستعمار والاستبداد والظلم الاجتماعي، ثم كيف كان لمهمته بالأزهر الدور الفاعل في توجيه شعر الرثاء، وتوجيه الموضوعات التي اقترنت به كما تعرفنا على مكنة الشاعر اللغوية والأدبية والفكرية في صوغ تجربته الأدبية.

لقد عشنا تجربة الموضوع، كما عشنا تجربة العمل الجماعي من خلال الإسهام الجاد في مشروع الأستاذ أبي بكر مرزوق، من اجل كشف الحجاب عن شخصية الخضر، هذه القامة الجزائرية المغاربية العربية الفذّة، التعرف إلى شخصية الأديب الشاعر فيه

الملاحق

الملحق الأول

ترجمة الشيخ الخضر

(1293- 1377هـ/1876– 1958م)

حياته*:

ولد الإمام محمد خَضِرْ حسين – رحمه الله تعالى – في مدينة (نَفْطة)؛ من أعمال الجريد بجنوب القطر التونسي في 26 رجب سنة 1293هـ /16 أغسطس 1876م. واسم الشيخ: (محمد بلَخْضَرْ بن الحسين)، ابن الشيخ الصوفي المشهور: (علي بن عمر الطولقي)، المتوفى في 1258هـ /1841 هـ، غير أنّه، لما توجّه إلى المشرق، حذف عماد كنيته "ابن" من اسمه، على الطريقة المشرقية، فغلب عليه (الخِضْر) عوضاً عن (لَخْضَرْ).

وأصل عائلته من أولاد سيدي (علي بن عثمان الإدريسي الحسني)، المتوفى في القرن الثامن الهجري بمنطقة (الدوسن)، من قرى بلدة (طولقة)، نواحي مدينة (بسكرة)، وهي واحة من واحات الجنوب الجزائري. أما أصل والدته (حليمة السعدية)، فمن أسرة جزائرية أيضا، وهي كريمة الشيخ الصوفي (مصطفى بن عزوز)، مؤسس زاوية (نفطة)، وأبو جده لأمه، العالم الفاضل (محمد بن عزوز) المتوفى في 1233هـ/1817م، وخاله العلامة الفقيه (محمد المكي بن عزوز) 1270هـ 1334هـ /1854م/1915م)، وهو من كبار العلماء الصالحين، الذي كان موضع إجلال وتقدير من رجال الدولة العثمانية.

هاجرت عائلة الإمام (محمد الخضر) إلى (نفطة) التونسية نظرا لما تعرضت له من اضطهاد من قِبَل الاستعمار الفرنسي آنذاك، كون العائلة الماجدة رفعت راية الجهاد عالية خفاقة، وكان من أبنائها بطل المقاومة الوطنية الفارس المغوار (الحسن بن عزوز) المتوفى في 1263هـ /1846م، الذي ولاّه الأمير (عبد القادر الجزائري) الخلافة على منطقة (الزيبان) ببسكرة الجزائرية.

ونشأ الإمام محمد الخضر حسين، بين أحضان أسرة كريمة تعتز بسجل يحفل بالأمجاد الزاخرة، والبطولات النادرة، بما أنجبت من علماء أعلام، ودعاة أتقياء. وفي زاوية جده سيدي (مصطفى بن عزوز)، تلقى أدوات العلم الأولى من كتابة وقراءة، ليعمل على حفظ القرآن الكريم بأحكامه

* اعتمدنا في هذه الترجمة على ما ورد عنه في موسوعة أعمال الشيخ الخضر.

وقراءته المتواترة، على شيوخ الزاوية، وعمره آنذاك لم يتجاوز التاسعة ربيعا، إلى جانب حفظه الكثير من المتون اللغوية على يد والدته السيدة العالمة (حليمة السعدية)، التي كان لها بالغ الأثر في مساره التعليمي. كما تلقى دروس اللغة والفقه والسيرة على يد عدد من العلماء الأجلاء، منهم: خاله (محمد المكي بن عزوز) الذي كان يرعاه ويهتم به، وكان المحفز الأول الذي أخذ بيده، وذلّل له الصعاب، وسلك به طريق العلم. وفي سن مبكرة من حياته، بدأت علامات النباهة والتفوق وأمارات النبوغ والتميّز تظهر عليه من خلال ولعه بالشعر الفصيح وقرضه، ومطالعته بدائع النثر، وأجادته في محاكاتها، وهو لا يزال صبيا

في سنة (1305 هـ/ 1888م)، وهو ابن الثانية عشرة من عمره، انتقل مع أسرته إلى تونس العاصمة؛ ليلتحق بجامع الزيتونة، وكان هذا الصرح معلما فكريا وعلميا عملاقا، يناظر، في المغرب الكبير، صرح جامع الأزهر عند المشارقة، وبين أروقته العتيقة، ومن مرحلة إلى مرحلة، ثابر الفتى واجتهد في تحصيل مختلف العلوم، وتقييد شتى المعارف التي كانت تُدرس؛ متتلمذا على يد كبار شيوخ الجامع ممن ذاع صيتهم، ونبغوا في العلوم الإسلامية، وتصدروا المشيخة عن جدارة ورسوخ قدم، فكان من شيوخه: الشيخ الجليل (عمر بن الشيخ)، الذي درس عليه التفسير، والشيخ (محمد النجار)، ثم الشيخ (سالم بوحاجب)، الذي كان يدرّس صحيح البخاري، فكان من أبرز شيوخه. وفي سنة (1316 هـ/ 1898م)، تخرج الطالب من جامع الزيتونة، متحصّلا على شهادة التطوّع، وهي شهادة تخوّل لصاحبها منصب التدريس والقضاء في المحاكم الشرعية، فراح يلقي دروسه في الجامع متطوعًا، لكنّه بقي ملتزما على حضور مجالس العلم والأدب المختلفة.

وفي سنة 1321هـ/1903م ارتحل إلى الجزائر، أين زار أمهات مدنها، معرجا على زاوية جدّه (علي بنعمر) بطولقة، وزاوية سيدي (الهامل) بأبي سعادة، وفي السنة التي تليها عاد إليها، قاصد العاصمة (الجزائر)، فزار المدرسة الثعالبية، وتعرف إلى علمائها، حيث توطدت علاقته بهم، كما ألقى دروساً في المساجد والمكتبات، وحضر بعض الدروس الدينية واللغوية، وشارك في بعض المجالس الأدبية.

وفي شهر محرم سنة 1322م/ إبريل 1904م، أنشأ مجلة "السعادة العظمى"، وهي أول مجلة عربية نصف شهرية تظهر في تونس، غير أنّه لم يصدر منها سوى 21 عددًا، وقد كان الشيخ يكتب أغلب مقالاتها. وفي سنة 1324م/ إبريل 1905م تولّى قضاء مدينة (بترت) ومنطقتها، إلى

جانب التدريس والخطابة بجامعها الكبير.. وفي سنة 1325 هـ 1907 م اشترك في تأسيس الجمعية الزيتونية.. ثم كلف بالخطابة في الخلدونية.

ولما قامت الحرب الطرابلسية في 5 شوال سنة 1329م/ 2 سبتمبر 1911م، بين إيطاليا والدولة العثمانية، وزحفت الجيوش الإيطالية فاحتلت طرابلس وبنغازي، وقف الشيخ بقلمه ولسانه إلى جانب الخلافة الإسلامية، دعيا الناس إلى مساندتها، وحين حاولت الحكومة احتواءه، ضمه إلى العمل في محكمة فرنسية رفض، ومعها بدأ الاستعمار الفرنسي سياسة بالتضييّق عليه واتهامه ببث روح العداء؛ فلما استشعر الشيخ الخطر على حياته، غادر تونس إلى (الآستانة)، بحجة الرغبة في زيارة خاله السيد (محمد المكي بن عزوز)، الذي كان يعيش هناك.. وكانت رحلته إليها عبر مصر ودمشق، لكنه يعود سريعا إلى تونس عبر (نابولي) الإيطالية، وقد نشر أخبار رحلته هذه في كتابه الرحالات.

ثم ما لبث أن عين عضوا بإحدى لجان التاريخ التونسي، لكن الأجواء الخانقة التي كانت تعيشها كلّ من تونس والجزائر، وما ترزح تحته من ظلم واستبداد حملته إلى الهجرة ثانية، فقصد دمشق، وفي طريقه إليها مرّ بالقاهرة، فلبث فيها مدة وجيزة، تعرف في أثنائها على كوكبة من العلماء الأعلام المناضلين، ورواد النهضة الفكرية والتنويرية، منهم: (الطاهر الجزائري) و(محب الدين الخطيب) و(أحمد تيمور باشا)، حيث توطدت علاقته بهم بعد ذلك. وفي دمشق، عين مدرساً للغة العربية في المدرسة السلطانية سنة 1330هـ/ 1912م، وخلال تلك الفترة، سافر إلى (القسطنطينية)، فوصلها يوم إعلان حرب البلقان الروسية العثمانية – ذي القعدة سنة 1330هـ/ 1912 م، فعاد إلى دمشق، ومنها سافر، بسكة حديد الحجاز، إلى (المدينة) المنورة سنة 1331هـ/ 1913م، ثم عاد إلى دمشق، ومنها يعاود السفر إلى الآستانة، فيلتقي وزير الحربية (أنور باشا)، حيث اختاره محررا عربيا بالوزارة، وفي أثنائها، أتيحت له فرصة ملامسة عوامل الفساد التي تفتك بمقومات الدولة العثمانية، ومعايشتها عن قرب.

وفي سنة 1333هـ/ 1915م، أرسله (أنور باشا) إلى العاصمة الألمانية (برلين)، في مهمة رسمية، فمكث بها تسعة أشهر، اجتهد خلالها على تعلم اللغة الألمانية، ومن برلين عاد إلى الآستانة ليجد خاله قد توفي، لكنه يحنّ إلى دمشق، فيتخلّى عن الوظيفة ويعد إليها. ومع وصوله دمشق، يعتقله السفاح (أحمد جمال باشا) الحاكم العام في سورية، في رمضان سنة 1334هـ يوليو سنة 1916م، فيلبث في السجن شهورا، حتى أنقذه منه تدخّل وزير الحربية العثماني (أنور باشا)،

فيغادر دمشق، بعد الإفراج عنه، إلى الآستانة، ليوفده (أنور باشا) ثانية إلى برلين سنة 1335هـ/ 1917م، يلتقى خلالها بزعماء الحركات الإسلامية هناك، من مثل الشيخ (عبد العزيز الجاويش)، ثم عاد إلى الآستانة، ومنها رجع إلى دمشق، ليزاول التدريس في المدرسة السلطانية.

وفي سنة 1337هـ/ 1918م، سافر من دمشق إلى الآستانة، وكانت الحرب العالمية الأولى في نهايتها، ومنها توجّه إلى ألمانيا للمرة الثالثة، فقضى بها سبعة أشهر، يعود بعدها إلى دمشق لتصادف عودته إقامة الحكم العربي، بقيادة (فيصل بن الحسين)، سنة 1337هـ/ 1919م، لكن الاحتلال الفرنسي أحبط هذا الأمل العربي سنة 1337هـ/ 1920م، ففكر الشيخ في العودة إلي تونس بعد أن احتلت دمشق، لكن المطاف ينتهي به في القاهرة؛ فألقى بها عصا ترحاله الذي استمر عشر سنوات.

استوطن القاهرة سنة 1339هـ 1921م، حيث أعانه الاستقرار على الإنتاج العلمي المنتظم، والنشاط الإصلاحي الدائم، فوضحت معالم نهجه في التجديد والإصلاح، والتفّت من حوله حلقات الطلاب والمريدين، وأخذت تأثيرات علمه وإصلاحه تلفت إليه أنظار العلماء وطلاب الإصلاح.. وفي سنة 1340هـ سنة 1922م، يتجنّس بالجنسية المصرية، ثم يتقدم إلى امتحان (العالمية) بالجامع الأزهر، فحصل على إجازتها بجدارة، وأصبح واحدا من علماء الأزهر. ومع هذه الامتيازات المدنية، يبدأ حياته الجديدة بعمله في دار الكتب المصرية، حيث يضطلع، بقسمها الأدبي بمهمّة تحقيق كتب التراث.

غير أنّ التجنس بالمصرية، والانخراط في هيئة كبار العلماء الأزهريين، والاشتغال بالبحث والتحقيق، لم يكن ليعوق الشيخ (الخضر) عن النهوض بمسؤولياته وواجباته كعالم مسلم ومجاهد عربي، ورعاية حقوق وطنه الأصلي (الجزائر) وموطن مولده (تونس)، ومن هنا، ينهض الشيخ سنة 1342هـ/ 1924م إلى تأسيس (جمعية تعاون جاليات إفريقيا الشمالية) لتحريك جهود أبنائها وتفعيلها في خدمة قضية التحرر من نير الاستعمار، ضمت في عضويتها، من الجزائر: الفضيل الورتلاني، والبشير الإبراهيمي، ومن تونس: الحبيب بورقيبة.

وعندما أصدر الأزهر الشريف مجلته التي بدأت باسم (نور الإسلام) سنة 1349هـ/1930م، عهد إلى الشيخ الخضر رئاسة تحريرها، فنهض بهذه المهمة من عددها الأول (محرم سنة 1349هـ/ 1930م)، حتى عدد ربيع الآخر سنة 1352هـ /1933م)، وعندما تكون ((مجمع اللغة العربية)) بالقاهرة سنة 1351هـ/ 1932م، وقد قام على عشرين عضواً عاملاً،

كان الشيخ الخضر واحد من أقدم هؤلاء الأعضاء، ومن أكثرهم إنتاجاً، و لم يقف نشاطه المجمعي عند المجمع القاهرة، فقد اختير عضواً بالمجمع العلمي العربي بدمشق.

وعندما قامت الثورة المصرية في 23 يوليو 1952م، كان منصب شيخ الأزهر شاغراً، فوقع اختيار الثورة وحكومتها على الشيخ (الخضر) شيخا للأزهر، وإماماً أكبر، وشيخاً للإسلام، ووجها مشرقاً لهذه الجامعة العريقة. فنهض بالأمانة ما وسعته طاقته.. وعندما أحس بضغوط تطلب منه تنفيذ ما لا يرضى صمم على الاستقالة في 2 جمادى الأولى سنة 1373هـ/7 يناير سنة 1954م. ومنذ ذلك التاريخ تفرغ للبحث و الكتابة والمحاضرة، حتى وفاه الأجل، فانتقل إلى جوار ربه مساء يوم الأحد 13 رجب سنة 1377هـ/ 3 فبراير 1958م، وقد شيّعه العلماء والفضلاء والعارفون لفضله وعلمه ونضاله، ودفن بمقبرة (آل تيمور)، بناء على وصيته، بجانب صديق دربه العلامة (أحمد تيمور باشا).

آثاره:

خلّف فضيلة الإمام محمد الخضر حسين للمكتبة العربية والإسلامية تراثاً دينياً وفكرياً وعلميا وأدبياً زاخرا، شهد على عقله المبدع، وفكره الراسخ المجدد. ومن مؤلفاته:

- رسائل الإصلاح: محاضرات ومقالات في المجال التربوي والأخلاقي.
- القياس في اللغة العربية: البحث الذي نال عليه المؤلف عضوية هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف.
- الخيال في الشعر العربي: هو كتاب نال شهرة واسعة في الأوساط الفكرية والأدبية.
- الحرية في الإسلام : محاضرة ألقاها في نادي قدماء المدرسة الصادقية.
- بلاغة القرآن: بحوث ودرسات تتعلق بـ "نقل معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية" و"رأي في تفسير القرآن" و"المحكم والمتشابه في القرآن الكريم".
- الرحالات: دَوَّن فيها رحالاته خارج الديار التونسية.
- محمد رسول الله وخاتم النبيين: مقالات حول السيرة النبوية العطرة.
- ديوان خواطر الحياة: وهو من الشعر الراقي الذي يسمو بالأخلاق الكريمة.
- السعادة العظمى: مجموعة مقالات نشرها المؤلف في أول مجلة السعادة العظمى بتونس
- الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان: مباحث دينية في أصول الدين، وأصول الفقه، والأحكام العملية، والفتاوى.

- محاضرات أدبية: مجموعة من المحاضرات كان قد ألقى بعضها في محطة الإذاعة بالقاهرة، ونادي جمعية الهداية الإسلامية، ونشرت في العديد من المجالات الأدبية.

- تراجم الرجال: تراجم مجموعة من أعلام الإسلام النبلاء.

- أحاديث من رحاب الأزهر: أحاديث الإمام لما اعتلى مشيخة الأزهر الشريف، وقد نشرت في العديد من الصحف والمجلات.

- دراسات في الشريعة الإسلامية: مجموعة أخرى من المقالات نشرها في مجلة "لواء الإسلام"، التي كانت تصدر عن هيئة مشيخة الأزهر.

- نقض كتاب في الشعر الجاهلي: فند فيه أغلاط الدكتور طه حسين حين صدر كتابه في الشعر الجاهلي.

- نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم: فند فيه كتاب "الإسلام وأصول الحكم" للقاضي الشرعي والشيخ الأزهري: "علي عبد الرازق"، ودعواه الباطلة.

- الهداية الإسلامية: مقالات كان ينشرها في مجلة "الهداية الإسلامية"، التي كان يترأس تحريرها.

- تونس وجامع الزيتونة: كتاب يتطرق إلى الحركة الفكرية في جامع الزيتونة العريق، مع تراجم بعض الفقهاء والأعلام التونسيين.

- حياة اللغة العربية: يضم بحوث في مجالات اللغة والنحو، نشر بعضها في مجلة المجمع اللغة العربية بالقاهرة.

- أسرار التنزيل: وهو تفسيره لبعض القرآن الكريم، نشره في مجلة "لواء الإسلام" التي كانت تصدر بالقاهرة، وكان رئيساً لتحريرها.

- الدعوة إلى الإصلاح: وهي مقالات في مجال الإصلاحي والتنويري، طبعت في حياته.

- حياة ابن خلدون: كتاب من الحجم صغير يتطرق إلى جوانب هامة من حياة العلامة (عبد الرحمن ابن خلدون) وفكره.

إلى جانب العديد من التحقيقات على هوامش الكتب، المؤلفات المتفرقة، والبحوث القيمة التي نشرت بين الصحف والمجالات العربية.

الملحق الثاني

تطور فن الرثاء عبر العصور الأدبية العربية

الرثاء في العصر الجاهلي:

يعتبر من أغنى العصور العربية شعراً حيث تعددت أغراضه وموضوعاته ومن تلك الأغراض التي أكثر منها، الشاعر الجاهلي الرثاء فهو إما يبدأ قصيدته بالمنهج الجاهلي المتبع، من الوقوف على الاتصال وإما أن يباشر بالرثاء بسبب طغيان مشاعره دون مراعاة الأسلوب السائد آنذاك.

ويعد الرثاء غرض خاصا بصاحبه، يعبر عن لوعة صاحبه في فقد عزيز عليه، فهو – عادة – ما يرتدّ إليه، إذ هو أصغر الشعر – كما يقول ابن رشيق – لا يعمل رغبة ولا رهبة[1].

الشعراء الجاهليون وعاء يصبونّ فيه من عفوية الأداء وفصاحة اللسان بهدف التعبير عن مشاعر الحزن والأسى والألم المكبوت في مقطوعات شعرية كلهاّ وحسرة، معارضة للقدر آتية عبر الزمن لتعيد القارئ إلى جوّ المأتم والأحزان تاركة إياه في جو مليء بالسواد، يعيشه كلما تذكر تلك الأبيات كما نجدهم قد نطقوا بها في جو الحروب،لأن الحرب آنذاك كانت داعيا من دواعي شيوع عرض الرثاء في العصر الجاهلي[2]، ولعلّ أول من رثى نفسه وذمّ في الدنيا" يزيد بن حذاق العبدي" يقول[3]:

هل للفتى من تابت الدهر من واقٍ ... أم هل له من حمام الموت من راقِ

قد رحلوّ في وما رحلت من شغبٍ ... وألبسو في ثيابا غيـــــر أخلاقـــــي

ورفعوني وقالوا أيمّا رجـــل ... وأدرجوني كأنـــي طـــُرّ مخـــراقِ

---

[1]– ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: صلاح الدين الهواري/ هدى عودة، دار ومكتبة الهلال، القاهرة، ط.1، 1996، ص: 214.

[2]– زغمار أميرة: الرثاء في الشعر العربي القديم (دراسة موضوعية فنية لعينة أبي ذؤيب العذلي)، مذكرة ماستر، جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، 2012، ص: 47.

[3]– محمد حسين أبو ناهي: الرثاء في الشعر العربي (أو جراحات القلوب)، دار ومكتبة الحياة، بيروت، ط.2، 1402هـــــ، ص: 19.

فنلمس من هذه الأبيات أن الشاعر الجاهلي، إذا أحسّ داعي الموت ندب نفسه ووصف ما يحدث به بعد موته من ترحيل شعره، فنجده يصف كفنه ثم قبره ودفنه.

الرثاء في صدر الإسلام:

يعد الرثاء من الأغراض التقليدية في العشر العربي، لأنه مرتبط بالنفس الإنسانية والحقيقة الأزلية التي تتجلى في أن نهاية كل إنسان كل حيّ هو الموت والزوال، مما جعل الشعراء يبكون على موتاهم أو قتلاهم، ويسجلون ذلك شعراً إلا أن هذا البكاء فيه جانبان:

الأول: تسجيل مشاعر الراثي وإظهار لوعة حزنه وفجيعته.

الثاني: بيان مكانة المرثي وتأبينه أي ذكر خصال الخير التي عرف بها في زمانه.

من هنا صور الرثاء عناصر الخير والمثل الأعلى في المجتمع فهو مثل المديح، إلا أنه يخص ممدوحاً غائباً عن الوجود وهو المرثي[1]، حيث عرف الرثاء تطور كبير في العصر الإسلامي فظهور العقيدة الجديدة أحدثت فيه نوعا من التغيير فلم نعد نسمع في رثاء الأصوات إلاّ التعابير الإسلامية وانتهت آثار الشركّ في الرثاء ، الذي ألفناه في العصر الجاهلي، وصبغت المفاهيم الإسلامية صور الرثاء صبغة تكاد تكون عامة وأبرز هذه الصور الرثاء ما قاله شعر العصر في رسول الله صلى الله عليه وسلم"، والخلفاء الراشدين ، قال حسان يرثي الرسول صلى الله عليه وسلم"[2]:

بطيبة رسم للرسول ومعهدُ ... منير وقد تعفو الرسوم وتمهد

ولا تمحي الآيات من دار حرمة ... بها منبر الهادي الذي كان يصعدُ

بها حجرات كان يترل وسطها ... من الله نور يستضاء ويوقدُ

عرفت بها رسم الرسول وعهده ... وقبراً بها في الترب ملحدُ

---

[1]- ابتسام مرهون الصفار: الأمالي في الادب الاسلامي، دار المناهج، عمان – الأردن، 2005، ص: 242.

[2]- محمد حسين أبو ناهي: الرثاء في الشعر العربي (أو جراحات القلوب)، دار ومكتبة الحياة، بيروت، ط.2، 1402هـ، ص: 112.

نلاحظ هنا أن التعابير والمعاني إسلامية لحما ودما، يبدأ حسان رثاءه لسيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم"، بداية كلها ألم وحسرة بفقدان هادي البشرية ثم يعطف إلى ذكر ما كان في هذا المكان الكريم من نزول آيات الذكر الحكيم آيات كانت نوراً ورحمة .

الرثاء في العصر الأموي:

إن الرثاء في عصر بني أمية، ما هو إلاّ امتداد لرثاء صدر الإسلام وبالتالي لم يعرف اختلافاً في الشكل ولا في المضمون، ويرجع ذلك إلى قرابة الصلة بين عصر بني أمية وعصر صدر الإسلام، لأن أغلبية الناس كانت من الصحابة والتابعين هذا من جهة ومن جهة أخرى، امتداد الصبغة الإسلامية التي لا زالت مبادئها حية في نوفس هؤلاء الصحابة[1]، ومن الشعراء الذين كان لهم فضل الريادةة في العصر الأموي "جرير" الذي نسمعه في أروع ما رثيت به امرأة، وهي من عيون المراثي وكان جرير يسميها الجوساء لذهابها في البلاد[2]:

لولا الحياء لها جني استبعارُ ... ولزرت قبرك والحبيب يزارُ

نعم الخليل وكنت علق فضة ... ولديّ منك سكينة ووقارُ

لن يلبث القرناء ان يتفرقوا ... ليلُ يكرُ عليهم ونهارُ

ولهت قلبي إذ علتني بكرةُ ... وذو التمائم من بينك صغارُ

صلى الملائكة الذين تخيروا ... والطيبون عليك والأبرارُ

فلقد أراك كسيت أحسن منظر ... ومع الجمال سكينة ووقار

كانت إذا هجر الحبيب فراشها ... حزن الحديث وعفت الأسرار

والملاحظ في أبياتها أن جرير أجاد وأبدع في إنشاء صورة تجلب إلا بصار وتشدّ نفسية القارئ إليها فهو يذكرنا وفاء هذه الزوجة الكريمة العفيفة وقد طلب من الله العفو والمغفرة.

الرثاء في العصر العباسي:

[1]- محمد حسين أبو ناهي: الرثاء في الشعر العربي (أو جراحات القلوب)، دار ومكتبة الحياة، بيروت، ط.2، 1402هـ، ص: 128.

[2]- محمد حسين أبو ناهي: الرثاء في الشعر العربي (أو جراحات القلوب)، دار ومكتبة الحياة، بيروت، ط.2، 1402هـ، ص: 136.

سار بعض شعراء بني العباس على نهج شعراء الأمويين، في الجمع بين التعزية والتهنئة، وهذا الموقف يتطلبّ حصافة في التفكير للتخلص من الحرج، وخاصة إذا كان الفقيد المرثي عزيزاً لصاحب التهنئة، أما صور الرثاء فقد تغيرت كثيراً عنها في العصر الأموي، وذلك لاختلاط التفكير العام وتأثره بالثقافات الأخرى فلا غرابة إذا أن تكون صور الرثاء مختلفة بعض الاختلاف عنها في العصر الأموي بصرف النظر عن تأثر الشعراء بالروح الإسلامية، في كلا العصرين[1]، ومن بين الشعراء العباسيين الذين تحقق لهم الجمع بين التهنئة والتعزية، أبونواس" الذي يعزي الفضل بين ربيع عن الرشيد ويهنئه بالأمين قائلاً[2]:

تعز أبا العبـــاس عـــن خـــير هالـــك بأكـــــرم حي كان أو هـــو كائـــنُ

حوادث أيـــام تـــدورُ صروفهـــــا لهنّ الملك مغبـــون ولا المـــوت غـــابن

الرثاء في العصر الأندلسي:

امتازت الأندلس بطبيعة ساحرة لذا جاء الوصف لهذه الطبيعة رقراقاً بارعة وقد كانت الأندلس في حروب متواصلة مع الإنسان وحول أوروبا المسيحية ثم اشتدت العواصف بين العرب أنفسهم، وتمزقت أوصال الأندلس إلى أجزاء، ودويلات صغيرة حتى استطاع الأسبان إخراج العرب نهائياً، منها.

وقد أبدع شعراء الأندلس بوجه خاص في رثاء الأندلس، البلد الذي كان نوراً لأوروبا كلها، فأجاد الشعراء المسلمون رثاء الممالك الإسلامية بلدا بلدا، وحصنا حصنا، مثل صقلية، وقرطبة، وغرناطة، وبلنسية[3]، ومن أجمل المراثي الأندلسية مرثية الرندي، التي قيلت فيها سقوط الأندلس والذي يقول في مطلعها[4]:

---

[1]- محمد حسين أبو ناهي: الرثاء في الشعر العربي (أو جراحات القلوب)، دار ومكتبة الحياة، بيروت، ط.2، 1402هـــ، ص: 150.

[2]- زغمار أميرة: الرثاء في الشعر العربي القديم (دراسة موضوعية فنية لعينة أبي ذؤيب العذلي)، مذكرة ماستر، جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، 2012، ص: 70.

[3]- محمد حسين أبو ناهي: الرثاء في الشعر العربي (أو جراحات القلوب)، دار ومكتبة الحياة، بيروت، ط.2، 1402هـــ، ص: 196.

[4]- محمد حسين أبو ناهي: الرثاء في الشعر العربي (أو جراحات القلوب)، دار ومكتبة الحياة، بيروت، ط.2، 1402هـــ، ص: 199.

لكـــــل شـــــيء إذا مـــــا تم نقصـــــانُ فـــــلا يغـــــر بطيـــــب العـــــيش إنســـــان
هـــــي الأمـــــور كمـــــا شاهدتهـــــا دولُ مـــــن ســـــرَّه زمـــــنُ ســـــاءته أزمـــــانُ
لمثـــل هـــذا يـــذوب القلـــبُ في كمـــدٍ أن كـــان في القلـــب إســـلام وإيمـــانُ

الرثاء في العصر الضعف:

انحطت الآداب في عصر المماليك انحطاطاً شديداً وذلك لأن حكام هذا العصر لم يكونوا عرباً، يشجعون العلوم والآداب بل صار وشعراء هذا العصر يحاكون الشعراء السابقين في فنون الشعر، ولقد كانت الصور الشعرية في هذا العصر باهتة غير واضحة في الاذهان لانعدام الفكر المتجدد الواسع الواعي المتدفق[1].

ومن رثاء العصر، ما نظمه أبو الحسن التهامي في رثاء والده[2]:

حكـــمُ المنيـــــة في البريـــــة جـــــارَ مـــــا هـــــذه الـــــدنيا بـــــدارِ قـــــرارِ
طبعـــت علـــى كـــدرٍ وأنـــت تريـــدها صـــــفواً مـــــن الأقـــــدار والاكـــــدارِ
فـــــالعيش نـــــوم والمنيـــــة يقظـــــــة والمـــــرء بينـــــهما خيـــــال ســـــــارِ
فاقضـــوا مـــآربكم عجـــــــالاً إنمـــــاً أعمـــــاركم ســـــفرُ مـــــن الأســـــفار
لـــيس الزمـــــان وإن حرصـــــت بســـــالم خلـــــق الزمـــــان عـــــداوة الأحـــــرار

فهذه المرثية قريبة إلى الحكم إلى الرثاء وهذا من دلائل انحراف التجربة الشعرية في أدب العصر المملوكي، و لم يكن الشعر عامة، والرثاء مثله في العصر التركي بأحسن حال منه.

[1]- محمد حسين أبو ناهي: الرثاء في الشعر العربي (أو جراحات القلوب)، دار ومكتبة الحياة، بيروت، ط.2، 1402هـ، ص: 203.

[2]- محمد حسين أبو ناهي: الرثاء في الشعر العربي (أو جراحات القلوب)، دار ومكتبة الحياة، بيروت، ط.2، 1402هـ، ص: 205.

الرثاء في العصر الحديث:

لا يختلف الرثاء في العصر الحديث عنه في أي عصر، وقد تميّز الشعراء في العصر الحديث عن ما بقيهم من شعراء الرثاء بتعددّ صورهم الرثائية، وتلونها بطابع مادي نظراً لأن الحياة الحديثة يغلب عليها الجانب المادي وتغيرت النظرة الرثائية، للحياة والإحياء رغم كون الرثاء يتناول عاطفة إنسانية خالدة على مر العصور والدهور إلا أن الإشكال تتغير تبعاً، لما جاء في كل عصر من مصر من أحداث وقيم حضارية جديدة[1]، فقد رثى الشعراء الإنسانية بشكل عام ورثوا أنفسهم بشكل خاص وغاصوا في وجدانياتهم وتأملاتهم رثوا العروبة الأخلاق بالإضافة إلى رثاء الأحبة[2].

ومن بين الشعراء الذين يسطع نجمهم في هذا العصر حافظ إبراهيم" حيث رثى الزعيم المصري، الكبير مصطفى كامل" وأسبل عليه وابل العبرات يقول في رثائه[3]:

أيا قبرُ هذا الضيفُ آمـــــال أمـــــةٍ ... فكبر وهلل والق ضـــيفكَ جانيـــــــاً

عزيز علينـــا أن نـــرى فيـــك مصـــطفى ... شـــهيد العـــلافي زهـــرة العمـــر ذاويـــاً

ومماتَ الـــذي أحيـــا الشـــعور وســـامهُ ... إلى المجـــد فاســـتحيا النفـــوسَ البواكيـــا

---

[1]- محمد حسين أبو ناهي: الرثاء في الشعر العربي (أو جراحات القلوب)، دار ومكتبة الحياة، بيروت، ط.2، 1402هـــ، ص: 206.

[2]- سراج الدين محمد: موسوعة المبدعون (الرثاء في الشعر العربي)، دار الراتب الجامعية، بيروت، ص: 6.

[3]- محمد حسين أبو ناهي: الرثاء في الشعر العربي (أو جراحات القلوب)، دار ومكتبة الحياة، بيروت، ط.2، 1402هـــ، ص: 211.

قائمة

المصادر والمراجع

مكتبة البحث

المصادر المباشرة:

1. حسين (محمد الخضر حسين): ديوان خواطر الحياة: موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، جمع وضبط: علي الرضا الحسيني، دار النوادر، بيروت، ط.1، 2010.

2. حسين (محمد الخضر حسين): موسوعة الأعمال الكاملة: مقدمة ديوان خواطر الحياة، الإمام محمد الخضر حسين، جمع وضبط: علي رضا الحسيني، دار النـــوادر، ط. 1، 2010، 7: 6-8.

المصادر غير المباشرة:

1. رشيق (الحسن بن رشيق القيرواني): العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقـــده، تـــح: صلاح الدين الهواري/ هدى عودة، دار ومكتبة الهلال، القاهرة، ط.1، 1996.

2. منظور (محمد بن مكرم بن منظور): لسان العرب، دار الحديث، القاهرة، 2002.

المراجع:

3. سعدي (عيسى إبراهيم سعدي): جماليات الشعر العربي على مر العصور، دار المعتـــز، عمان – الأردن، ط.1، 2008.

4. صفار (ابتسام مرهون الصفار): الأمالي في الادب الاسلامي، دار المناهج، عمـــان – الأردن، 2005.

5. ضيق (شوقي ضيف): فنون الأدب العربي، ص: 12.

6. ضيف (شوقي ضيف): تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)، دار المعارف، القاهرة.

7. ضيف (شوقي ضيف): الرثاء، دار المعارف، القاهرة، ط.4.

8. طليمات (غازي طليمات) / الأستاذ عرفات الأشقر: تاريخ الأدب العربي الجـــاهلي (قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه)، دار الأدبية، حمص – سوريا.

9. فايد (وفاء كامل فايد): قصيدة الرثاء، دار الكتب 2000/3078، كليـــة الآداب، جامعة القاهرة، 2000.

10. محمد (سراج الدين محمد): موسوعة المبدعون (الرثاء في الشعر العربي)، دار الراتـــب الجامعية، بيروت.

11. مصطفى (إبراهيم مصطفى)، أحمد حسن الزيات، وآخرون: معجم الوسيط، مكتبة الشرق الأوسط، ط.4، 2004.

12. ناصيف (أميل ناصف): أروع ما قيل في الرثاء، دار الجيل، بيروت، ط.2.

13. ناهي (محمد حسين أبو ناهي): الرثاء في الشعر العربي (أو جراحات القلوب)، دار ومكتبة الحياة، بيروت، ط.2، 1402هـ.

المجلات والدوريات:

14. جابري (مقدم الجابري): هاجس الموت في شعر صلاح عبد الصبور، مجلة الأثر، جامعة الحاج لخضر، باتنة، ع.10.

15. قريرة (حمزة قريرة): محاضرات الأدب العربي، السداسي الأول، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 2014.

الرسائل والمذكرات:

16. زغمار (أميرة زغمار): الرثاء في الشعر العربي القديم (دراسة موضوعية فنية لعينة أبي ذؤيب العذلي)، مذكرة ماستر، جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، 2012.

17. رايسي (مباركة رايسي/ سارة ميهوبي): ديوان خواطر الحياة (قراءة موضوعاتية)، مذكرة ليسانس، إشراف: أبو بكر مرزوق (ضمن مشروع "محمد الخضر حسين الجزائري)، معهد الأدب العربي، جامعة عمار ثليجي (الأغواط)، للموسم الجامعي: 2011 – 2012.

18. شعليو (ملاك سعيد محمد شعليو) : رؤية الموت في شعر محمد القيسي، رسالة ماجستير، جامعة الشرق الأوسط، كانون الثاني، 2016.

19. عشي (آمنة عشيّ): الرثاء في ديوان ابن زيدون (دراسة أسلوبية)، مذكرة ماستر، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2015/2014.

مواقع الكترونية:

20. أيوب (محمد شعبان أيوب): كيف نظر تراثنا لفكرة المـــوت، وهواجســـها ؟ آخـــر تحديث: 2018/5/25، سا16:43د مكة المكرمة.

21. صدقي (حامد صدقي): رسول زراع لفكرة الموت وألوانه في شـــعر سمـــيح فـــاهم (دراسات في الأدب المعاصر)، السنة السادســـة، خريـــف 1393، ع.23، ص:91 - 108، تاريخ الوصول: 92/10/15، قبول: 93/1/18.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
إهداء	
كلمة شكر	
مقدمة	أ-ج
مدخل: فكرة الموت في الأدب العربي	
في مفهوم الرثاء	05
أنواع الرثاء	06
خصائص الرثاء	08
الفصل الأول: شعر الرثاء عند الشيخ الخضر حسين	
المبحث الأول: التجربة الشعرية عند الشيخ الخضر حسين	11
ديوان خواطر الحياة	16
الأغراض الشعرية في الديوان	16
نماذج من شعره	17
المبحث الثاني: موضوعة الرثاء في ديوان (خواطر الحياة)	20
دواعي الرثاء عند الشيخ الخضر	21
الفصل الثاني: بنية قصيدة الرثاء عند الشيخ الخضر	
المبحث الأول: بعض ملامح بناء المضمون في رثاء الشيخ الخضر	34
علاقة الرثاء بالشاعر	35
الشاعر وأنواع الرثاء	36
رثاء الذات	36
رثاء الأقارب	38
رثاء البلدان	40
رثاء الأصدقاء	42
المبحث الثاني: بعض ملامح البناء الأسلوبي في رثاء الشيخ الخضر	43
الأساليب الحجاجية	44

دلالة الحقل المعجمي في رثاء الشيخ الخضر	48
بناء الصورة عند الخضر	50
النص الإحالي وبناء التناص في الرثاء	52
بناء الإيقاع في الرثاء	53
الخاتمة	57
الملحق	59
قائمة المصادر والمراجع	72
المحتوى	
الملخص	

الملخص بالعربية:

عنوان الرسالة: الرثاء في ديوان الشيخ محمد الخَضِر حسين

إنجاز: ط/ أمينة بن عطية إشراف: د/ أبو بكر مرزوق

الملخص العربي

يتناول البحث شخصية مُحَّد الخضر حسين في جانبها الأدبي، من خلال ديوانه (خواطر الحياة)، حيث حاولنا أن نسلّط الضوء على غرض الرثاء عنده، ومحاولة رصد بنية قصيدة الرثاء عنده.

الألفاظ المفاتيح: الشيخ مُحَّد الخضر حسين – فكرة الموت – الرثاء – الحقول المعجمية – الإيقاع..

Résume :

Titre: « Lamentation au bureau du cheikh Mohammed Al-Khader Hussein »
Réalise pare : Amina Ben Attia Encadre par : Dr. Abu Bakr Marzouk

La recherche porte sur la personnalité de Mohammed al-Khader Hussain dans son aspect littéraire, à travers son livre de pensées de la vie, où nous avons essayé de faire la lumière sur le but de le déplorer et de surveiller la structure de son poème de lamentation.

Mots-clés: Cheikh Muhammad al-Khader Hussein- L'idée de la mort - Lamentations - Le rythme des champs de lexiques..

Abstract :

Title: "Lamentation at the Office of Sheikh Mohammed Al-Khader Hussein"

Presented by: Amina Ben Attia Supervised by: Dr. Abu Bakr Marzouk

The research focuses on the personality of Mohammed al-Khader Hussain in his literary aspect, through his book of thoughts of life, where we tried to shed light on the purpose of lamenting it and to monitor the structure of his poem of lamentation.

Keywords: Sheikh Muhammad al-Khader Hussein- The idea of death - Lamentations - The rhythm of lexicon fields ..